

نوابغ الفكر العربي

١٣

السَّهْرُورِيُّ

بقلم سامي الكيالي

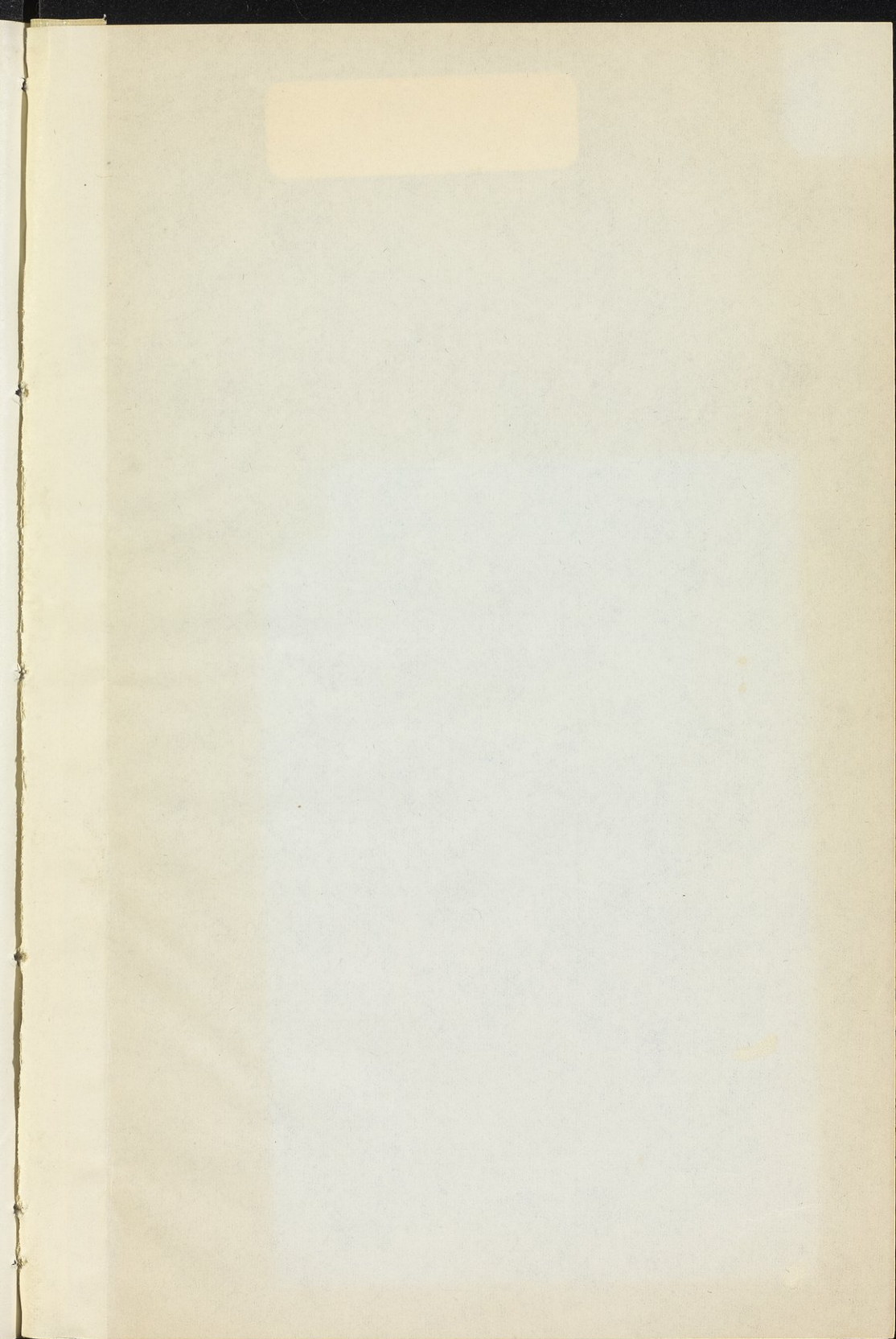


دار المعارف

Princeton University Library



32101 076257201



السَّهْرُورِيُّ





نوابغ الفكر العربي

al-Kayyālī, Sāmī

١٣

السهروردي

al-Suhrawardī

بقلم سامي الكيالي

كان السهروردي أوجد أهل زمانه في العلوم
الحكمية جامعاً للعلوم الفلسفية بارعاً في
الأصول الفقهية مفرط الذكاء فصيح العبارة
وكان علمه أكثر من عقله .
ابن أبي أصيبعة



دار المعارف

دستخط و امضاء

۷۱

(مهر و امضاء)

تاریخ و مکان

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ

محل و تاریخ



الفصل الأول عصر السهروردي

١ - توطئة

١ - الفكر العربي والفلسفة الإسلامية :

عرفت العقلية الإسلامية في تاريخها الطويل ، شخصيات لامعة تركت للتراث الإنساني آثاراً قيمة ومناهج قويمه وآراء حصيفة يزداد سناها ويشع بريقها ويتألأ نورها كلما مرت بها الأيام وتقادمت العصور .

من عيون هذه الشخصيات ، بل من نوابع العقل الإنساني « الحكيم شهاب الدين السهروردي » زعيم مدرسة الإشراقيين والذي مرت حياته ، على قصرها ، بألوان عنيفة من ضروب النضال الحى في سبيل الحق والمثل العليا .

* * *

وقبل أن نعرض إلى خطوط فلسفته لا بد من عقد فصول تمهيدية عن نشأته ومرآحل حياته ، وعن العصر الذى نشأ فى صميمه ، وعن الطابع السياسى والفكرى لذلك العصر ، وبذلك نرسم صورة واضحة جليلة لهذا الفيلسوف الحكيم الذى يعتبر من نوابع الفكر الإسلامى ، ولا علينا أن نقول من « نوابع الفكر العربى » عنوان هذه السلسلة الأدبية التى تتناول تأريخ حياة كبار مفكرى العرب والإسلام بالبحث والتحليل .

وقد يقول قائل : وما الفرق بين الفكرين ؟

وهذا سؤال وجيه واستطرد فرضته على نفسى أرى من الفائدة أن أمر به ولو مروراً سريعاً .

فقد أثار غير واحد من المستشرقين موضوع « الفلسفة العربية » فى مباحثهم ودراساتهم . . . فمنهم من أراد أن يعتبرها « فلسفة إسلامية » وأن يعتبر الفلاسفة

والمفكرين الذين كتبوا بالعربية « فلاسفة مسلمين » دون أن يدخلهم في نطاق الفلسفة العربية . . . ومنهم من يرى العكس تماماً باعتبار أن آراءهم وفلسفتهم قد كتبت بالعربية ، وهى بهذا قد دخلت في نطاق « الفكر العربى » الواسع الآفاق . . .

وكل واحد يدل بحجه ، وكلها ، فى نظرى ، تلتقى فى مصب واحد .

ولم يقف الأمر عند المستشرقين بل إن غير واحد من مفكرى العرب المعاصرين ممن عرضوا فى دراساتهم للمباحث الفلسفية ، والإسلامية منها بصورة خاصة ، قد أثاروا هذه الناحية أيضاً : أثارها عرضاً الأستاذ أحمد لطفى السيد ، والمرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، والدكتور إبراهيم مدكور والأستاذ محمد عبد الله عنان والدكتور عبد الرحمن بدوى والدكتور جميل صليبا وغيرهم وغيرهم .

يقول بعضهم : « فلسفة إسلامية » ويرون ، أسوة ببعض المستشرقين ، أن هذه الفلسفة ليست عربية ، لأن جمهرة أهلها لم يكونوا من أصل سامى ، وأنها أحق أن تضاف إلى الإسلام لأن له أثراً ظاهراً ، ولأنها نشأت فى بلاد إسلامية وعاشت تحت راية الإسلام ، بينا الذين يقولون « فلسفة عربية » يستندون إلى أن « الإسلام » رغم كل ما نفذ إليه من العناصر الأجنبية ظل أثراً من آثار « العبقريّة العربية » . . ومن جهة ثانية « فإن لفظ المسلمين يخرج النصارى والإسرائيليين والصابئة وأصحاب ديانات أخرى لهم نصيب غير يسير فى العلوم والتصانيف العربية ، وخصوصاً فيما يتعلق بالرياضيات والهيئة والطب والفلسفة ^(١) » .

ونرى أن اصطلاح « الفلسفة العربية » أشمل وأدق ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من مفكرى الإسلام قد اعتمدوا اللغة العربية أداة حية لتدوين أكثر مصنفاتهم . .

(١) كارلوفيلينو « علم الفلك : وتاريخه عند العرب فى القرون الوسطى » ص ١٨ ج ١ .

فالفارابي^(١) والغزالي^(٢) وابن سينا^(٣) والفخر الرازي^(٤) وعشرات بل مئات من الفحول الذين أنبتهم بلاد فارس قد تركوا لغتهم الأصلية وكتبوا تأملاتهم الفلسفية ونزعاتهم الصوفية وآراءهم المختلفة في الدين والعلم والأدب والمنطق ، وفي الكون والحياة باللغة العربية . فهل نخرج هؤلاء المفكرين من نطاق « الفكر العربي » وقد عاشوا في ظلاله وحلقوا في أجوائه . . .

(١) أبو النصر الفارابي (٢٦٠-٣٣٩ هـ ٨٧٤-٩٥٠ م) أكبر فلاسفة المسلمين ، الملقب بالمعلم الثاني ، تركي الأصل ، متعرب ، ولد في فاراب - على نهر جيحون - وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها ، ورحل إلى مصر والشام واتصل بسيف الدولة بن حمدان وتوفي في دمشق ، كان يحسن أكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره ، له نحو مئة كتاب منها « الفصوص » وقد ترجم إلى الألمانية ، و « إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها » و « مبادئ أهل المدينة الفاضلة » و « المدخل في الموسيقى » و « السياسة المدنية » و « جوامع السياسة » ؛ وكان زاهداً ، لا يحتفل بأمر مسكن أو مكسب ، يميل إلى الانفراد بنفسه ، ولم يكن يوجد غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض .

(٢) محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد (٤٥٠-٥٥٥ هـ ١٠٥٨-١١١١ م) حجة الإسلام ، فيلسوف متصوف ، له نحو مئتي مصنف ، أشهرها : « إحياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » و « الاقتصاد في الاعتقاد » و « محك النظر » و « معارج القدس في أحوال النفس » و « مقاصد الفلاسفة » و « المنقذ من الضلال » . ولد في طوس بخراسان . ورحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فصر وعاد إلى بلده وتوفي فيها ، ونسبته إلى غزاة « قرية من قراها » .

(٣) أبو علي ، الحسين بن عبدالله بن سينا (٣٧٠-٤٢٨ هـ ٩٨٠-١٠٣٧ م) الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف في المنطق والطبيعيات والإلهيات والطب الذي - كما قيل - كان معدوماً فأوجده بقراط ، وكان ميتاً فأحياه جالينوس ، وكان متفرقاً فجمعه الرازي ، وكان ناقصاً فأكمل ابن سينا . ولد في إحدى قرى بخارى . ونشأ وتعلم في بخارى ، وطاف البلاد ، وناظر العلماء . واتسعت شهرته ، وصنف نحو مئة كتاب بين مطول ومختصر . ونظم الشعر الفلسفي الجيد ، ودرس اللغة مدة طويلة حتى بارى كبار المنشئين ، وتوفي في همدان . وأشهر كتبه : « القانون » وقد ترجمه الفرنج إلى لغاتهم وكانوا يتعلمونه في مدارسهم وطبعوه بالعربية في روما . و « المعاد » و « رسالة في الحكمة » و « الشفاء » و « أسرار الحكمة المشرقية » و « أرجوزة في المنطق والإشارات ولسان العرب والعشق » و « رسالة في فلسفته » .

(٤) فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٦ هـ ١١٥٠-١٢١٠ م) الإمام المفسر ، أوجد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، أصله من طبرستان ، ولد في الري ، ورحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفي في هراة . من تصانيفه الشهيرة : « تفسير القرآن الكريم » و « أسرار التنزيل » و « المباحث المشرقية » و « نهاية العقول » و « القضاء والقدر » و « النفس والنبوت » و « شرح الإشارات لابن سينا » و « شرح سقط الزند للمعري » .

لست أريد أن أتوسع في هذا الموضوع فحسبي ما قدمته لأدعمه بنص يكاد يفتح الباب على مصراعيه في لون هذا الخلاف الذي يقوم بين الباحثين ، فقد جرت في صدر الإسلام حادثة حول « العربية والعجمة » وعمّا إذا كان يحق للأعجمي أن يدعى العروبة فكان كلام النبي محمد محكماً في هذا الخلاف الذي انشطر الرأي حوله شطرين

ففي مجلس اجتمع فيه سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وقف قيس بن مطاطية يعرض بأعجميتهم ، فما كان من معاذ بن جبل إلا أن أخذ بتلابيبه وقاده إلى النبي الكريم محمد « صلوات الله عليه » وأخبره بمقالته . . ثم نودي الصلاة جامعة وقال :

يأيها الناس : إن الرب واحد ، والأب واحد وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان . . . فن تكلم بالعربية فهو عربي ^(١) .

ولا ضير بعد أن اعتبر النبي الكريم محمد كلاً من سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي الذين تكلموا العربية « عرباً » أن نعتبر ذلك التراث الذي كتبه الفارابي والغزالي وابن سينا باللغة العربية أدخل في نطاق « الفكر العربي » منه في أي نطاق آخر .

ب - عبقرية اللغة العربية :

إن هذا الموضوع الذي عرضنا له هذا العرض السريع يجزونا إلى أن نقول كلمة في « عبقرية اللغة العربية » التي فرضت نفسها على الكثير من بقاع العالم . فالواقع . . أن قضية اللغة العربية ومدى انتشارها في مختلف الأقطار ولدى مختلف الأمم وتغلّبها على لغاتهم إنما هي حدث من الأحداث الخطيرة في تاريخ لغات العالم . . . وقد رد بعضهم سر هذه القوة إلى « الدين » وهذا بلا شك عامل قوى له أثره الذي لا ينكر . . . ولكن هناك أشياء غير الدين ، أشياء ذات أثر سحري في خصائص هذه اللغة التي ما دخلت بيئة من البيئات إلا اجتذبت إليها الموهوبين من العباقرة حتى من غير المسلمين فكانوا يقبلون على تعلمها فلا تكاد تلامس شغاف قلوبهم حتى يعلنوا إيمانهم بها ويخروا سجداً أمام محرابها الأزل .

(١) « تهذيب ابن عساکر » ج ٢ ص ١٨٩ .

نعم لقد اجتذبت العربية « بحلاوتها ومرونتها ، وبكثرة اتساعها في شرح العلوم وتيسيرها ، بل جمالها المتمثل في إعرابها وتعبيرها ، وإعجازها وإيجازها ، ومتراذفتها وأمثالها وكثرة معانيها ^(١) » اجتذبت طائفة من الموهوبين فحكفوا على دقائقها وأسرارها يدرسونها بشوق وصبر ونهم ، وما زالوا حتى ملكوا عنانها كأبرّ أبنائها بها واتخذوها أداة طيية للتعبير عن آرائهم ونزعاتهم ، وقد تجاوز عدد الذين صنفوا بالعربية ، من غير العرب ، المئات وكاهم ، كما ألمعنا ، ذوو باع طويل في التدوين والتأليف . . . فعبد الله بن المقفع مترجم كتاب « كليلة ودمنة » وبيدع الزمان الهمداني مبتكر فنّ المقامات وقابوس بن وشكير صاحب « رسائل البلاغة » ، وابن مسكويه صاحب « تجارب الأمم » وابن سينا صاحب « الشفاء في الحكمة » و « القانون في الطب » ومصنف أكثر من مئة مؤلف ، والثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » والبغوي صاحب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » والحوارزمي صاحب « مفاتيح العلوم » والزنجشري صاحب « أساس البلاغة » والشهرستاني صاحب « الملل والنحل » وعشرات غيرهم ممن هم في علو كعبهم ، كلهم قد دونوا مؤلفاتهم بالعربية ولاشك أن هذا الفيض من العلوم والفنون وأكثره في غير شئون الدين هو أدخل في نطاق « الفكر العربي » منه في « الفكر الإسلامي » وهذا الذي يجعلنا نعتبر السهروردي ، وقد كتب مؤلفاته بالعربية ، من نوابغ الفكر العربي .

٢ - الحركة السياسية والعقلية

عاش الحكيم شهاب الدين السهروردي في أوائل القرن السادس الهجري حيث كان العالم العربي ، أو المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، في وضع متقلقل مضطرب : إمارات مستقلة واهية البنيان ، وممالك كبيرة على وشك الانهيار ، ومطامع أجنبية ذات مخالب حادة .

(١) أحمد حامد الصراف: « عمر الخيام » ص ٥ .

فقد كان الغرب ينظر إلى الشرق نظرة مريبة ، شأنه في الماضي كما هو شأنه اليوم ، تدفعه إلى ذلك مطامع سياسية واقتصادية ليست رداء الدين ، ذلك الرداء القاتم الذى صبغ دنيا العالم الإسلامى بالنجيع الأحمر ، أريد تلك الحروب الدامية التى أطلقوا عليها اسم « الحروب الصليبية » التى نشبت بضراوة مدة قرنين كاملين (٤٩٠ - ٦٩٠ هـ) بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى .

فى ذلك العصر المضطرب عاش الحكيم شهاب الدين السهروردى ، وهو عصر ، إلى ما ساده من اضطراب وقلق وذعر، وإلى ما نشب فى أطرافه من ثورات وفتن وحروب ، وما هُرق على جوانب أرضه من دم ، كان يتسم بطابع علمى باهر السنأ ، فى تلك الفترة استفاضت المعرفة فى جوانب الشرق الإسلامى وتشعبت فروعها ، وكثر الأدباء والشعراء والفلاسفة والمتصوفة والحكماء ، وكانت المذاهب الدينية والنظريات الفلسفية تتصارع صراعاً أشبه ما يكون بهذا الصراع الدامى الذى نشب بين الشرق والغرب ، وكثيراً ما يكون الصراع الفكرى أشد عنفاً من الصراع الدموى .

فبذور المعرفة التى بذرها الخلفاء الأمويون والعباسيون ومن جاء بعدهم والتى بدأت فى دمشق والرها وبغداد ، ثم امتدت إلى خراسان والرى وخوزستان وأذربيجان وما وراء النهر ، ثم إلى مصر والأندلس ، تلك البذور الطيبة التى كان من ثمارها اليانعة ترجمة الكثير من كتب الفلسفة والمنطق والطب والأخلاق والسياسة والهيئة قد كان لها أثرها فى العقلية الإسلامية التى وقفت شبه محترصة من هذه الآراء ولا سيما فى فترة كان علم الكلام قد بلغ أوجه ، فاشتدت الخصومات العلمية بين الأشاعرة والمعتزلة والحنابلة والجبرية ، وانتشرت رسائل إخوان الصفا وشاعت الآراء الباطنية وتعددت الفرق والطوائف . . . وقد وقف السهروردى من جميع هذه التيارات الفكرية التى كان يغص بها عصره موقف الباحث المتقرب الذى يعتمد على عقله وذوقه فالت نفسه إلى الحكمة والتصوف وسلك طريقاً يختلف عن الكثير من متعرجات هذه الطرق : الطريق الفلسفى الصوفى الذى قامت عليه عناصر فلسفته الإشراقية التى خلدهته فى ضمير الزمن وإن أودت بحياته فلقى مصرعه فى سبيل النضال عن فكرته .

كان الصراع بين الدين والفلسفة ، في تلك الفترة ، على أشده ، وكان الفلاسفة عرضة لاحتقار العامة « وكان الملوك يسايرون العامة في ذلك رغبة في استرضائهم لتوطيد سلطانهم » ، وكان الملك صلاح الدين الأيوبي ^(١) ، الذي لعب أكبر دور في إنقاذ الوطن الإسلامي من الغزو المسيحي ، كان يرى في هذه المذاهب الفلسفية صدعاً للوحدة القومية التي تقوم على الإيمان وعلى قداسة الدين ، فقد كان يكره الفلسفة ورجاها ويرأها مفسدة للعقول . . وما للفلسفة تخلق الشكوك وتزعزع العقائد وتثير المجادلات وفي جوهر الدين كل ما تريده الأنفس التي تبغى الصلاح وتنشد الحياة المثالية .

وقد كان السهروردي ضحية هذا الرأي كما سيجيء في صاب الحديث عن حياته .

وكما ذهب صلاح الدين هذا المذهب في الشرق ، فقد جارا المنصور في الغرب ، فمن أشهر الحوادث التي تروى كتب التاريخ ، نقمة المنصور بن أبي عامر صاحب الأندلس على الفلاسفة ، فقد اضطهدهم ونفاهم ، وكان في طليعتهم ابن رشد وأبو جعفر الذهبي وأبو عبد الله قاضي بجاية وغيرهم وغيرهم ، وعزم ألا يترك شيئاً من كتب الحكمة والمنطق في بلاده إلا أمر بحرقها في النار وشدد النكير على المشتغلين بها .

وبالرغم من كل ذلك فقد ظهر في هذا العصر أعلام كالنجوم كتبوا آراءهم بكثير من الحرية ، لأنهم كانوا يؤمنون بصدق رسالتهم ، فلم يشنهم الوعد والوعيد ، ولا السجن والنفي والتشريد ، ولا مجال لأن ندرج ثبت الأعلام الذين تركوا آثاراً خالدة في شتى شؤون المعرفة فحسبنا أن نذكر من نجوم العصر الذي عاش فيه السهروردي سواء من جاء قبله أو بعده : حمزة الإسلام

(١) صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٥ هـ - ١١٣٧ - ١١٩٣ م) من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية « دوين » في شرق أذربيجان ، ولد صلاح الدين بتكرت ، ونشأ في دمشق . ودخل مع أبيه أيوب في خدمة نور الدين زنكي واشترك مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة ٥٥٩ هـ فكانت وقائع ظهرت فيها مزاياه العسكرية ، وقد اختاره الخليفة العاضد الفاطمي بعد وفاة عمه شيركوه للوزارة وقيادة الجيش ولقبه بالملك الناصر وقد دخل مع الصليبيين في عدة حروب استطاع خلالها أن ينتصر انتصاراً عظيماً على ملكي فرنسا وإنكلترا بجيشهما وأسطوليهما =

الغزالي ، والفخر الرازي ، والشهرستاني ^(١) ، وابن رشد ^(٢) ، وابن طفيل ^(٣) ، وغيرهم من الهداة ممن اشتغل بالفلسفة أو بالعلم أو الأدب أو المنطق أو الفقه ، وكلهم قد ترك في تاريخ العقلية الإسلامية أثراً خالداً ميزت ذلك العصر بالمعرفة الواسعة بالرغم من الاضطراب السياسي الذي ساد جميع أمصاره وأقطاره .

٣ - البيئة الاجتماعية

كان للاضطراب السياسي ، في عصر السهروردي وما سبق هذا العصر من قيام دولات وسقوط دويلات ، كان له أثره في تطور الحياة الاجتماعية وتباين مظاهرها وتشتيت ألوانها ، ولا سيما أن هذا العصر قد شهد تيارات مختلفة من الصراع على صولجان الحكم وأبهة السلطان . كذلك كان الصراع قوياً بين مختلف الطبقات . . . فن طبقة متميزة تعيش في ترف وبذخ متناهين ، إلى طبقات

=وقد دانت لصالح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً ، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي « يوم جطن » . كان رقيق النفس والقلب على شدة بطولته ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النظر ، متواضعاً مع جنده وأمرأه جيشه .

(١) الشهرستاني (٤٦٧ - ٥٤٨ هـ ١٠٧٤ - ١١٥٣ م) من فلاسفة الإسلام . كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة . ولد في شهرستان . وانتقل إلى بغداد سنة ٥١٠ هـ فأقام ثلاث سنوات وعاد إلى بلده فتوفي فيها . ومن كتبه الشهيرة « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام في علم الكلام » و « مصارعات الفلاسفة » و « تاريخ الحكماء » و « المبدأ والمعاد » .

(٢) ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م) فيلسوف أندلسي من أهل قرطبة ، يسميه الإفرنج Averroës عنى بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية . وزاد عليه زيادات كثيرة ، وصنف نحو خمسين كتاباً منها « فلسفة ابن رشد » و « فصل المقال بين الحكمة والشرعية والاتصال » و « تهاافت التهاافت » و « الرد على الغزالي » و « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » و « الكليات » الذي ترجم إلى اللاتينية والعبرية . وكان دمث الأخلاق ، حسن الرأي ، عرف الخليفة المنصور قدره فأجله وقدمه واتهمه خصومه بالزندقة والإلحاد فأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه إلى مراكش وأحرق بعض كتبه ، ثم رضى عنه وأذن له في العودة إلى وطنه فعاجلته الوفاة بمراكش ونقلت جثته إلى قرطبة .

(٣) ابن الطفيل (٥٠٠ - ٥٨١ هـ ١١٨٥ - ١٢٠٠ م) محمد بن عبد الملك بن الطفيل أبو بكر ، فيلسوف أندلسي ، صاحب رسالة « حى بن يقظان » و « أسرار الحكمة المشرقية » .

كادحة تعيش عيشة السوائم وقد قنعت باليسير اليسير مما يقوم بأود الحياة . . . إلى تجارات واسعة يديرها تجار جشعون . . إلى صناعات مزدهرة وفنون مزخرفة تلون مظاهر المجتمع بأزهى الألوان . . إلى حياة ماجنة تشع بالأضاليل والعبث والأهواء . . إلى حكماء وفلاسفة وشعراء تركوا لعالم الذهن فيضاً من الحكمة والفلسفة والشعر الممزوج برمزية الصوفيين . . إلى فرق وأحزاب وشيع اتخذت الدين وسيلة للآرب سياسية خطيرة ومبادئ هدامة . . إلى ما شئت مما تتميز به عصور الفوضى والاضطراب .

ونحن نعلم أن في عصور الفوضى تفتتح الأذهان ، وتنمو العبقريات . . . وقد كانت البيئة تتفاعل بحيوية عجيبة : كانت تنبض بجميع هذه الظواهر وبمختلف هذه التيارات . . وكان التفسخ والانحلال يسودان قلب المجتمع الذى عاش في ظلال قائمة من حياة الكذب والملق والرياء . . نلمس هذا في نثر الأدباء وشعر الشعراء الذين كانوا يتقربون إلى الملوك والأمراء بأماديحهم ، وهى أماديح - إلى معانيها اللطيفة ، وألفاظها المتخيرة ، وخيالها الخصب المجنح الذى يخلق فى الفضاء حتى ليدانى الكواكب والنجوم - لا تنبض بروح الصدق . . وقد أشار أحد شعراء ذلك العصر إلى مظاهر تلك الحياة وإلى روحها بقوله :

« لقد نسخ الوفاء ، وانعدمت المروءة ، ولم يبق منها إلا الاسم ، كالعنقاء والكيمياء » .

ويظهر أن علم الكيمياء كان فى عقول الكثيرين حتى فى عقول الصفوة المختارة من المفكرين علماء وهمياً حتى قرن بطير العنقاء .

ويتابع الشاعر وصف مظاهر الحياة الاجتماعية فى عصر السهروردي فيقول :

« لقد صارت الأمانة خيانة ، والذكاء سفهاً ، والعدالة عداوة ، والإنسانية جفاء . . وانعكست آداب الخلق جميعاً بسبب هذا العالم البخيل ، والفلك عديم الوفاء ، فكل عاقل قد انتحى زاوية ، وكل فاضل قد صار مبتلى بداهية » (١) .

(١) هذا النص مترجم عن الشعر الفارسي بقلم الدكتور عبد المنعم محمد حسنين فى كتابه «نظام الكنجوى شاعر الفضيلة» ص ٦٨ والشعر للشاعر الصوفى عبد الواسع الجبلى .

هذه صورة عن البيئة الاجتماعية التي عاش السهروردى في ظلها . .
وهي بيئة - إلى ترف مظاهرها - ذات جوّ موبوء ، وهذا الذى دفعه أن
يبتدع فلسفة جديدة تنقذ العالم مما هو فيه - العالم الموبوء الذى عزفت نفسه عنه
وانتابته الآلام من شروره . . فكان يعكس ما تنتهى إليه دراساته العويصة من
فلسفة وحكمة على ما يراه ويلمسه في قلب المجتمع من ظواهر ، فيرى البون شاسعاً بين
الواقع والمثاليات ، بين الحقيقة والخيال . . وقد زاد في ألمه أن يكون الاصطراع
والتناحر على أمور تافهة لا تتصل بجوهر الأشياء وحقيقتها الكبرى . . ولا سيما
أنه رأى بعينيه ما يكابده الإنسان من جور وظلم أخيه الإنسان ، وما تكابد
الطبقات التى يتألف منها مجتمعه من بؤس وشقاء ، وكيف أصبحت أسيرة
التقاليد والخرافات وفريسة الوسواس والأهواء نتيجة لما كان ييشه بعض الدجالين
الذين تمسكوا بقشور الدين دون لبابه ، وبعرّضه دون جوهره .

نعم ، ألم السهروردى هذا الانهيار فى الخلق ، والتفسخ فى طبيعة المجتمع ،
وحزت فى صدره تلك الحروب التى كانت تمشب الفترة بعد الفترة ، وهى
- فى عقيدته - حروب تقوم على الأثرة والمنفعة ولا تلتمس حياة الرفعة والسمو ،
الحياة التى ترتفع بالعقل البشرى وبالإيمان إلى عالم علوى قد خلا من النزعات
والأدران . . وهذا ما جعله يزدرى بيئته ، ويضيق بجوها الخانق ، ويلتمس
الخلاص لنفسه وروحه من عناصر القوضى والانحلال والميوعة التى غامت على
أفق وطنه الكبير فضرب فى الآفاق يلتمس الحكمة أنّى وجدها . . فى كل بلد
وتحت كل كوكب ، ويؤثر أن يعيش فى غير عالمه مأخوذاً بعالم الإشراق
الذى تكونت من أشعة نوره فلسفته ذات الإشعاع الباهر .

الفصل الثانى

السهروردى فى عصره

١ - مولده ونشأته الأولى

... فى منتصف القرن السادس الهجرى ، بين سنتى ٥٤٥ و ٥٤٩ هـ (١١٥٠ - ١١٥٥ م) ولد شهاب الدين السهروردى فى قرية سهرورد ، وهى بليدة تقوم فى أعلى جبال فارس - العراق العجمى - من أعمال زنجان ، وزنجان منطقة خصبة تزهو بطبيعة جميلة باسمه ، ومناظر رائعة خلابة ، وأدغال ، وغابات كثيفة ، أخرجت غير واحد من أكابر الرجال بينهم الفقهاء والعلماء والمتصوفون . وكانت سهرورد أزهى قرى تلك المنطقة ، وقد نشأ فيها غير واحد من الفضلاء ، وكان الإمام شهاب الدين أشهرهم بما تميزت به حياته من ألوان . نشأ الطفل شهاب الدين ، كأكثر أطفال القرية الذين يوجهون منذ نشأتهم الأولى ، وجهة دينية ، فحفظ القرآن ، ودُرِّب على تلاوة الأوراد ، وكان يؤدى الصلوات الخمس بفرح نفسانى عميق ، لا يمنعه برد الشتاء القارس فى تلك المناطق الباردة أن يحذو حذو أبيه ومشايخه من القيام فى ساعة مبكرة لأداء صلاة الفجر بله صلوات التهجد والغفران وقيام الليل . .

كانت الصلاة عنده ، وهو صغير ، ليست ركوعاً وسجوداً وتلاوة سور فحسب ، بل اتجهاً كلياً نحو الخالق العظيم أن يأخذ بيده إلى طريق الخير ويوجه خطواته نحو الصراط المستقيم . .

تعلم ، وهو طفل ، القراءة والكتابة فى فترة قصيرة لم تطل ، وكانت إحاطته بهما بهذه السرعة ، موضع حديث القرية وما جاورها من القرى .

كان الجميع يتحدثون عن ذكاء الطفل وعن سيره فى طريق تختلف كل الاختلاف عن الطريق التى يسلكها أطفال القرية . .

وإذ بلغ مراحل الفتوة ، شعر من الأعماق أن هذه القرية التى نشأ فى

ظلالها لن تطمئن نزعاته إلى ما كانت تهيجس به أخيلته . .
 فقد ضاق بسهرورد . . أو ضاق به أطفال سهرورد الذين كانوا يريدون
 منه أن يجاريهم في أهوائهم وعبثهم ، وأن يصعد معهم في الجبال ويهبط الأودية
 يلعبون ويقنصون . . فكان حبه للعلم وتفسيق ذهنه اليقظ من البواعث الملحة التي
 حفزته أن يترك بليدته إلى بلدة تكون فيها الدراسة أعم وأشمل . .

٢ - أساتذته

كانت « مراغة » وهي من أعمال أذربيجان ، من المدن التي استفاضت
 شهرتها بالعلم . . فخرجت أكابر العلماء وأثبتت شخصيات فذة في شئون الدين
 وفي علوم الأولين . . وكان عالمها الأشهر لزمان السهروردي ، هو الشيخ
 مجد الدين الجيلي ، وهو من أكابر العلماء الذين عرفوا ببعد النظر وسعة العلم ،
 وقد أشرب قلبه بالحلب الإلهي فتتلمذ عليه غير واحد من الأعلام كان في
 طليعهم الإمام فخر الدين الرازي .

وما كاد الفتى شهاب الدين ، التلميذ الناشئ المحب للمعرفة ، يسمع بعلو
 كعب هذا الرجل حتى هرع إليه يطلب العلم من وطابه . وكانت حلقة دروسه
 تضم مختلف الشباب ممن استهوى العلم أفئدتهم ، وكانوا من مناطق مختلفة
 وجنسيات متباينة ، فقد كانت حلقات دروس أولئك المشايخ الأعلام تقوم
 مقام الجامعات في يومنا هذا ، وقد التقى ، في حلقة الشيخ مجد الدين ، مع
 فخر الدين الرازي ، فكانا يستمعان إلى دروسه بكثير من الوعي دون أن تكون أية
 صلة سابقة بين التلميذين اللهم إلا هذه الصلة الجديدة ، صلة التزاحم على
 اعتراف علم الشيخ ، فقد كان الرازي مأخوذاً بدروس علم الكلام ، بينما كان
 السهروردي مأخوذاً بعلم الكلام والمنطق كمدخل للدراسات الفلسفية .

استهوت السهروردي دروس الفلسفة أكثر من بقية العلوم لمواءمتها نزاعته ،
 وكان إلى فرط ذكائه ، وقوة حججه ، كثير الجدل ، وكانت مقدرته الجدلية

موضع حديث كل من عرفه أو دخل معه في نقاش ، وهذا الذي دفعه أن يمعن في دراسة الفلسفة لتقوى حجته على مناظريه .

وقد شعر بعد ملازمته للشيخ محمد الدين الجيلي ، وبعد أن حضر عليه زبدة دروسه ، أنه في حاجة إلى أفق أوسع ، وكانت أصفهان ذات شهرة واسعة في العلم أيضاً . . . من زنجان إلى أذربيجان إلى أصفهان يغشى مدارسها ويتصل بعلمائها ويبحث عن نفيس كتبها . . . وقد همته بصورة خاصة كتب الرئيس ابن سينا . نعم ، لقد درج على هذه الحياة منذ نشأته الأولى فما يكاد يسمع برجل له شهرته ، أو بكتاب له قيمته حتى يشد إليه الرحال .

في هذه الفترة من بدء حياته المتأرجحة بين علوم الدين من جهة ، وعلوم الفلسفة من جهة ثانية ، وبين نزعته الدينية التي قادته إلى عوالم صوفية مشعة بالأنوار . . . في تلك الفترة من حياته ، أخذت الحلقات الصوفية تجتذبه إلى رحابها ، وقد تأثر أى تأثر بهذه الحلقات وبما كتبه الأئمة من المتصوفين فسار سيرهم ، وأخذ يرسم اختلاجاته النفسية في رسائل تعبر عن نزعاته في الدين والحياة والكون ، وهي مشربة بروح فلسفية تصوفية ، وقد أهلى هذه الرسائل ، إلى أصدقائه في أصفهان . .

٣ - نبوغه المبكر

نشأ السهروردي نشأة أولئك الذين استهوهم حياة العقل منذ نعومته أظفارهم وما زال حتى بلغ أوج هذه الحياة .

عانى في سبيل الوصول إلى عالم الحق والذات الإلهية الكثير من العذاب والمشقة والعنف والجهد والإرهاق .

بدأ حياة التلمذة في أروقة المدارس وحلقات الجوامع ، يستمع إلى الأئمة والشيوخ في لهف وشوق . . . ولكن هذه الفترة من حياته لم تطل ، فسرعان ما تخطى عهد التلمذة ووصل إلى مصاف الأساتذة : فن تلميذ حاد الذكاء ، شديد النهم إلى المعرفة ، إلى معلم مرشد ، وإمام من كبار الأئمة . ومن دروس

النحو والصرف والفقه والتفسير والمنطق ، إلى عالم التصوف ودرجات الفلسفة . . .
 يقرأ ويتأمل ، يجادل ويناقش ، يكتب ويؤلف ، يتقشف ويتفلسف . .
 ولقد هال هذا النبوغ المبكر أساتذته الذين كانوا يضيقون بأسئلته ومناقشاته ،
 ويجدله وتخريجاته ، كان يخرجهم بمختلف الاستطرادات . . وكثيراً ما كان
 يبرزهم بدرايته ويتفوق عليهم في الفهم . .

تخطى ، في برهة قصيرة ، كل من سبقه من أعلام الفكر وجهابذة
 المعرفة . واستطاع ، وهو في شبابه ، أن يرسم خطوط فلسفته الإشراقية التي لم
 توطد ركائزها على ما كتبه الفلاسفة والمتصوفون فحسب ، بل على ما أحسه
 وشعر به ، فكانت « ذاته » وكان « انطلاقه في سبيل المعرفة » من الحوافز
 التي دفعته إلى أن ينسى كل ما في الكون في سبيل الوصول عن طريق « التجرد »
 إلى الذات العليا .

قرأ ما كتبه فلاسفة اليونان وفلاسفة الفرس والهند ، وما كتبه المتكلمون (١)
 والمتصوفة من الإسلاميين ، وكون لنفسه فلسفة جديدة قام بعضها على هذا
 المزيج من الفلسفات ، وأكثرها على حياة « التفكير » و « التجرد » . . وقد
 خلاص من « صوفيته » ومن شتى « دراساته المنطقية » إلى نظرات فلسفية جديدة
 أملاها في الكثير من رسائله وكتبه ، وكونت مجموعها « الفلسفة الإشراقية » التي
 اعتبر زعيمها الأول ومؤسس مدرستها الكبرى .

(١) سمي العلم الذي يبحث في العقائد : « الأدلة العقلية » ، والرد على المخالفين « علم الكلام » ،
 وسمى المشتغلون به « المتكلمين » . وقد اختلفوا في سبب هذه التسمية فقال بعضهم . إنه سمي علم الكلام ،
 لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف في العصور الأولى مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسمى العلم كله
 بأهم مسألة فيه ، أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات على العقائد ، وليس يرجع إلى عمل . أو لأنهم
 تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه ، أو لأنه في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه
 بالمنطق في تبينه مسالك الحق في الفلسفة فوضع للأول اسم مرادف للثاني ، فسمى « كلاماً » مقابلة
 لكلمة « منطق » (ضحى الإسلام ج ٣ ص ٩) .

٤ - أسفاره

كانت الأسفار والنقل في مختلف الأقطار بعض هواياته ، فلا يكاد ينزل ببلدة جديدة حتى يبحث كما قلنا ، عن علماءها ونفيس كتبها ، بل عن أئمة الصوفيين يقبس من أنوارهم ما يسدد خطواته نحو المُثُل العليا ، مُثُل الصوفيين الذين يتجردون عن كل ما في الحياة من مباحج في سبيل الوصول ، على قدم التجرد ، إلى مشاهدة أنوار الحق .

ومن أصفهان إلى ديار بكر ، وقد أنس عند أمير خربوط عماد الدين قرة أرسلان الذي كان يحكم تلك المناطق ، كل مكرمة وتقدير فأهداه كتابه «الألواح العمادية» .

وبالرغم من الرعاية التي أحيط بها في ديار بكر وخربوط فإن مقامه في هاتين البلدتين لم يطل ... إن نفسه نزاعة إلى آفاق أوسع . . قد تكون المعرفة التي تنشدها نفسه هي في غير هذه المناطق . . وكانت نفسه تعتلج بالكثير من التفاعلات ، ولا سيما بعد أن أسلم قلبه إلى تلك القبسات العلوية ، فهو يبحث عنها في يقظته ومنامه . . وكانت لا تمر دقيقة من حياته دون أن يستلهم شيئاً جديداً . . وقد عبر لنا عن قلقه وحيرته وهمومه وآلامه بهذه الكلمة التي ترينا أي رجل هذا الذي ينشد المعرفة :

«وها هو ذا .. قد بلغت سنى إلى قريب من ثلاثين سنة ، وأكثر عمري في الأسفار والاستخبار والفحص عن مُشاركٍ مطّلع على العلوم ، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها» .

إن هذه السنوات التي قضاها في الأسفار ، لم تروِ غلته ولم تشبع نهمه . لقد قرأ كثيراً ، واتصل بأعلام متفوقين ، وغشى حلقات العلماء وأروقة الصوفيين ، وعاش لحظات طويلة مع الفلاسفة وأقطاب الحكمة . . ومع ذلك كان يحس في قرارة نفسه ، أن أشياء عويصة لا تزال مغلقة عليه . . إنه يريد

أن يطوّف في مختلف أنحاء الدنيا ليصل إلى ما يكشف له هذه الأمور المغلقة ، وينتزع من قلبه هذه الغشاوة التي تعقد سحبا في كل خلية من خلايا وجدانه العقلي .

إن المناقشات التي أدارها مع من اتصل بهم في رحلاته لم تطمئن نزعاته ، إنه يريد أن يصل إلى ما هو أسمى في حقيقة الكون ، في النبوات ، في الذات الإلهية . . .

ولقد كان في مجادلاته ومناقشاته أكثر عنفاً منه في تأملاته . . كان لا يقيم في مناقشاته بالنصوص بل كان يعتمد على الحجة والعقل . . إنه يريد أن يأتي بما لم يأت به غيره من المتقدمين . . وحين كان يضيق بالمجادلات العميقة كان يلجأ إلى الوحدة والتأمل . . ففي عالم الوحدة والتأمل كانت تنكشف له حالات ترتفع به إلى تلك الآفاق الروحية التي يجد في رحابها بعض ما يطمئن نزعاته ويهدئ من ثوراته . .

لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق ، وأصبح السهروردي وهو في هذه السن ، من النوابغ والأعلام . . وما زال يتنقل من بلد إلى بلد حتى حط عصا التسيار بمدينة حلب .

٥ - آراء العلماء فيه

١ - آراء الأقدمين :

ترك لنا معاصروه الكثير من الفقرات التي تكشف لنا عن بعض خصائصه الذاتية والعقلية ، وقد يكرن من الأمانة أن ننقل هنا بعض هذه الفقرات . . فقد وصفه الشيخ فخر الدين المارديني^(١) ، وهو عالم متبحر ، وطبيب قد تصدى لشرح كتب ابن سينا ، وكان السهروردي قد قصده في ماردین وناقشه مناقشات حادة . قال الشيخ فخر الدين :

(١) ولد في ماردین في ٢٥ ذی الحجة سنة ٥٩٤ ومات فيها سنة ٦٧٧ هـ .

« ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ، لم أجد أحداً مثله فى زمانى . . إلا أنى أخشى عليه ، لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه ، أن يكون ذلك سبباً لتلافه » .
وقد صدقت فراسة هذا الشيخ وسنشير إلى ذلك فى نهاية هذا الفصل . .

وفى « معجم الأدباء » لياقوت (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ) :

« شهاب الدين أبو الفتوح السهروردى ، كان فقيهاً ، شافعى المذهب ، أصولياً ، أديباً ، شاعراً ، حكماً ، متقناً ، نظاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه » . . .

وفى « عيون الأنباء » لابن أنى أصيبعة (٥٩٥ - ٦٦٨ هـ) قوله :

« كان السهروردى أوحده أهل زمانه فى العلوم الحكيمية ، جامعاً للفنون الفلسفية ، بارعاً فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، جيد الفطرة ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله » .

وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) :

« كان السهروردى من علماء عصره ، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ محمد الدين الجبلى إلى أن برع فيهما » .

ورد غير واحد من معاصريه كلاماً مماثلاً لما قدمناه ، وقد رأينا الاكتفاء بهذه الفقرات التى تسجل رأى بعض الأئمة والمؤرخين بعقريه هذا الشاب .

* * *

ب - آراء المحدثين :

وحين عرض له معاصرون ودرسوا آراءه وكتبه وقارنوا بين فلسفته وفلسفة من تقدمه رأوا فيه هذا العقل الإشرقي المتحرر الذى لم يقف عند هذا الحدود الضيقة من عرضه للمشاكل العقلية بل كان واسع الآفاق ، حرّ النزعة واعتبروه^(١) الزعيم الأول للمدرسة الإشرقية التى أوضع أسسها .

ولطائفة من المستشرقين الفضل الأكبر فى الكشف عن نواحي عبقريته ، فقد نشروا بعض كتبه وخصوا آراءه المبتايزية وفلسفته الإشرقية ، وعرضوا عرضاً شاملاً لنواحي حياته . . . وقارنوا بين آرائه وآراء من تقدمه من فلاسفة

(١) الدكتور : أحمد أمين ، عبد الرحمن بدوى ، إبراهيم مدكور ، سامى النشار وغيرهم .

الإغريق والفلاسفة المعاصرين. وكان في طليعة المستشرقين الذين اهتموا بأرائه وكتبه « بروكلمن » و « أ. ريتز » الألمان ، و « فان دن برج » المستشرق الهولندي الذي كتب عنه فصلاً في « دائرة المعارف الإسلامية » وترجم كتابه « هياكل النور » إلى الهولندية ، و « ماسينيون » الذي عرض له في أثناء بحوثه عن الحلاج ، و « باول كراوس » الذي كتب عنه كثيراً ونشر بعض رسائله ولا سيما رسالة « أصوات أجنحة جبرائيل » ، وكذلك « هنري كوربان » المستشرق الفرنسي الذي اهتم بالغ الاهتمام بحياة السهروردي وفلسفته فنشر كتاباً ضمّ رسائله الكثيرة بعنوان « الحكمة المشرقية » . وشخصية السهروردي وكتبه تمثلان عند « كوربان » لحظات جوهرية في تاريخ الفكر في الإسلام — عدا كثيرين ممن فتحوا نافذة واسعة للمؤلفين العرب ليبحثوا كتبه وشخصيته في ضوء جديد من البحوث الفلسفية المتحررة .

وهكذا ، فقد بدأت الدراسات تكثر بين مؤلفي الإسلام والمستشرقين حول شخصية هذا الصوفي الفيلسوف الذي مرّت حياته القصيرة ، من تحت قنطري الحياة العقلية والحياة الروحية ، بصور متباينة سواء فيما يتعلق بشخصه أم آرائه . . وإنها لصور تبدو تارة جميلة من حيث عمق ربه الملتزمة ، وتارة قائمة محزنة بالنهاية الأليمة التي انتهت بها مأساة حياته .

٦ - صورته الجسمانية

بعد أن طوّف السهروردي في مختلف البلدان تناهى إليه صيت حلب كمركز من مراكز الثقافة الإسلامية ، وكانت حلب ، حين اعتزم السفر إليها ، بعد أن مكث مدة في ماردين مع شيخها الطيب العالم فخر الدين ، تحت حكم الملك الظاهر غازي ^(١) بن صلاح الدين الذي عمل على تعزيز الحركة

(١) الملك الظاهر الأيوبي (٥٦٨ - ٦١٣ هـ ١١٧٣ - ١٢١٦ م) ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي من ملوك الدولة الأيوبية . ولد بالقاهرة وأعطاه والده مملكة حلب سنة ٥٨٢ . فتولاها =

العلمية التي بدأها وزيره القاضي بهاء الدين بن شداد^(١) مع نور الدين محمود زنكي، وذلك بإنشاء المدارس ورعاية العلماء مما جعلها تستعيد مكانتها السامية في عهد الحمدانيين .

وقد كانت المدرسة الحلوية أشهر مدارس حلب آنئذ ، تضم كبار العلماء من فقهاء وأصوليين ومتكلمين وأدباء وشعراء . .

وكانت شهرته قد سبقته إليها ، وحرص العلماء ، حين دخوله المدينة ، أن يتعرفوا إلى هذه الشخصية العجيبة التي بلغت هذه المرتبة من العلم وهي لا تزال في هذه السن المبكرة .

ولم يكن مظهره مما يلقي الهيبة والاحترام في نفوس مستقبلية . . والمظهر تأثيره البالغ في نفوس الكثيرين حتى من طبقة العلماء !

كان الحكيم شهاب الدين السهروردي شاباً غص الإهاب ، ولكنه أهمل نفسه أو كاد ، وبلغ الإهمال به حتى كان ، على حد قول بعض من أرّخ له - « زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له ثوباً ولا جسماً ، ولا يداً ، ولا يقص ظفراً أو شعراً » ، وزادوا على ذلك فقالوا : « إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه وإن كل من يراه يهرب منه » .

إن هذا الوصف قد يوائم حقيقة ازدرائه بالمظاهر التي يعتز بها بعض الناس... أما قبوله أن تكون ثيابه دنسة - وهو الصوفي الورع - فهذا في اعتقادي ، بعض مبالغة الرواة أو بعض إرهاصات خصومه الفقهاء !

فالواقع ، أن السهروردي كان لا يعنى بالمظاهر ، فهذه ناحية اتفق عليها أصدقاؤه وخصومه معاً . . ولكن ليس للدرجة التي أشرنا إليها ، فقد وصفه تلميذه الحب الشهرزوري صاحب كتاب « نزهة الأرواح » بقوله :

= واستمر إلى أن توفي في قلعته . وهو مدفون في الجامع الواقع تجاه قلعة حلب . وكان حازماً مهيئاً .

(١) ابن شداد (٥٣٩ - ٦٣٢ هـ ١١٤٥ - ١٢٣٤ م) يوسف بن رافع بن تميم الأسدي ، بهاء الدين ، أبو المحاسن ، بن شداد ، مؤرخ ، من كبار القضاة ، ولد بالموصل ، ونشأ بحلب ، وولاه السلطان صلاح الدين قضاء العسكر وبيت المقدس والنظر على أوقافه ، ثم ولي قضاء حلب ، فاستمر إلى أن توفي فيها ، وهو شيخ المؤرخ ابن خلكان . ومن كتبه « النوادر السلطانية » و « تاريخ حلب » و « دلائل الأحكام » و « ملجأ الحكام عند التباس الأحكام » و « فضل الجهاد » .

« إنه كان مستوى القامة ، يضرب شعره ولحيته إلى الشقرة ، وإنه كان يميل إلى السماع — يريد الموسيقى — وكان يبدى احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية ، وكان — في بعض الأحيان — يلبس ثوباً واسعاً طويلاً ، وعمامة زاهية الألوان ، و — أحياناً أخرى — كان يبدو على العكس من هذا ، في ثياب مهلهلة . . ومراراً كان يقتنع بارتداء خرقة الصوفية » . .

وقد روى ابن رقيقة هذه الملحة الطريفة فقال :

« كنت أنا وإياه نتمشى في جامع ” مياً فارقين “ وهو لابس جبة قصيرة مضربة زرقاء ، وعلى رأسه فوطة طويلة ، وفي رجله زربول^(١) ورأى صديق لي ، فأتى إلى جانبي وقال ” ما جئت تماشى إلا هذا الخربندا “^(٢) فقلت له : اسكت هذا سيد الوقت شهاب الدين السهروردي ، فتعاطم قولي ، وتعجب وانصرف ! » وبالرغم من هذا الإهمال لمظهره فقد أحاط به العلماء ، يتعرفون إليه ويرحبون به

٧ — مآساته

هبط السهروردي حلب ونزل بالمدرسة الحلوية ، وأخذ يحضر كتلميذ متواضع دروس شيخها الشريف افتخار الدين ، يريد أن يقبس من شيخ حلب أنوار العلم ومصباح الهداية مما لم يصل إلى سمعه . . ومرت به الأيام وهو يستمع ، فشعر أنه لم يفد شيئاً . . وبدأ حياة المناظرة والجدل مع أستاذه ومع فقهاء حلب وكانوا يكوّنون عنه فكرة سيئة ، وبدأت آراؤه وأقواله تنفذ إلى البيئات العلمية في المدارس والجماعات والمنتديات . وأصبح له شأنه ، أحبه أناس وكرهه آخرون ، شأنه في ذلك شأن ذوى المواهب الفذة الذين لا يكادون يظهرون حتى تتألب عليهم عناصر الجهل والغباء تعمل على إطفاء نورهم وأدملكاتهم وعبقرياتهم .

(١) زربول : أصلها زربون : أى نعل ويستعملها العوام كلمة للسب .

(٢) خربنده : كلمة فارسية معناها مكارى ، جار .

وقد تطور الجدل العلمى إلى خصومة رعناء .
أخذ الفقهاء يتقوّلون عليه أشياء لم يقلها ، وينسبون إليه آراء لم يفه بها .
واستطاعوا أن يثيروا عليه نقمة الرأى العام ، ولا سيما بعد أن ناظرهم فى عدة
مسائل فلم يثبت له أحد منهم ، وظهر عليهم كلهم . . عدا شيخه المفضل -
شيخ المدرسة الحلوية - الذى ظهر فضله له فقرب مجلسه وأدناه . .
وقد زاده هذا التقرب من الشيخ بغضاً وضغينة من خصومه الذين أخذوا
يقلبون علمه جهلاً ، وهديه ضلالاً ، ويقينه شكاً ، وإيمانه كفرأً ، وتصوفه
شعوذةً ، وفلسفته هرطقةً ، وكل حسناته سيئات !
وأكثروا من تشنيعهم حين أخذ الشيخ يمهد له عند السلطان ، الذى حرص -
بعد هذه الضجة التى ثارت حوله ، وبعد أن أفرطوا فى الخط من مكانته العلمية ،
وبعد أن اتهموه بالزيغ وانحلال العقيدة - حرص الملك الظاهر أن يتعرف
عليه وأن يلمس مدى الصدق فى أقوال علماء مملكته ، ورثة الأنبياء
ومصاييح الأمة الهداة !

* * *

استقبله الملك الظاهر فى قصره الجميل ، ورحّب به أجمل ترحيب ، ودارت
الأحاديث حول الضجة القائمة حوله ، فما كاد السهروردي يفيض فى الحديث ،
حتى لمح فيه سمر الحكمة وإشراق الذهن . . وتبيّن البون الشاسع بين عقلية
« علماء المملكة » وبين عقلية السهروردي المتحررة من كل قيد . . وهنا . . .
رأى المليك أن يكون الحكيم شهاب الدين من خلصائه ، فقرّبه إليه وأنزله أعظم
منزلة من نفسه . .

ولكن هذا العطف السامى زاد قلوب العلماء عليه حقداً ، فأخذوا يشنون
عليه الحملة تلو الحملة ، ولم يتركوا نقيصة من النقائص - عدا رمية بالإلحاد
والزندقة - إلا ألصقوها به !

كان السهروردي فى وادٍ . . وكان خصومه الفقهاء فى وادٍ آخر . . إنه
جاء مدينة حلب ليتابع رسالتّه الإشرافية ، ليكتب ما اختزنه صدره من آراء
واتجاهات ، ليدع فى الفلسفة الإسلامية أصدق النظريات . . . وبعد . . . ليتابع

رحلاته إلى مختلف عواصم الدنيا - في الشرق وفي الغرب - يقف على مدى تطور الفكر ويستزيد علماً ومعرفة، شأنه في ذلك شأن الأفذاذ الذين لا يُروى نهمهم من العلم . . .

إن صدره ممتلئ بالآمال الجسام . لقد وعى فلسفة الإغريق وفلسفة الهند وفارس والفلسفة الإسلامية على مختلف صورها . . وهو يريد أن يبدع ، من هذا المزيج ، فلسفة جديدة رسم خطوطها الواضحة في فلسفته الإشراقية . . إنه بلغ هذه المرتبة العلمية وهو في الثلاثين من عمره . . فإذا يكون شأنه حين يبلغ الستين مثلاً ؟

لقد وضع في حلب برنامجاً ضخماً لحياته الفلسفية وللمؤلفات التي ستخطتها براعته . . ولكن إرهابات الفقهاء ، لم تقف دون إبداعه فحسب بل انتمرت على حياته . . لقد استطاعوا أن يثيروها عليه حملة شعواء وكادت تنشب فيه أظفارها لولا حماية الملك له . . وقد انشطر الرأي العام الحلبي حوله شطرين : هذا معه وذاك عليه .

وعلام ؟

إن انتصاره عليهم حفزهم أن يزِيلوه من الوجود . . ولا سيما أن هذا الانتصار قد مسّ مركزهم في المجتمع ولدى الملك وعند الدهماء بصورة خاصة . وألقوا وفداً لمقابلة الملك الظاهر . . وجرّوا معهم جمهوراً كثيفاً من الدهماء للتأثير فيه . . وقد استمع إليهم بصدر رحب وأخذ يناقشهم بهدوء ورفق فذهبت محاولتهم عبثاً . . لقد طلبوا من الملك أن يصدر أمره بهدر دمه فهاله الطلب . . كيف يهدر دم شاب عالم متصوف رأى فيه إنساناً أشرب قلبه بحب الله ، وصوفياً يُعَدّ في مرتبة كبار المتصوفين وقد سمع منه آيات بلغت السمو في الإشراق ؟! . . .

لقد هال الملك الظاهر أن يصبح الفكر المشرق هزأة بيد أنصاف العلماء . . . فردّهم من حيث أتوا ، ولم يلتفت إلى هذه الإرهابات التي تعطل حرية الفكر وحيوية الإنتاج والإبداع . .

وضاق الفقهاء كل الضيق من موقف الظاهر منهم وحمايته للسهروردي . .
فماذا يعملون ؟

لجأوا إلى أبيه الملك صلاح الدين يستفزون عاطفته الدينية ، وسيرة صلاح الدين مشهورة بالتقى والورع وببغضه كتب الفلاسفة وأرباب المنطق ، ومما أوهموا به صلاح الدين قولهم إن صحبة الملك الظاهر للسهروردي ستكون مدعاة لفساد عقيدته وعقائد الناس ، وزادوا في التهويل حين ضمنوا رسالتهم العبارة الآتية « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » !

فما كان من صلاح الدين إلا أن كتب إلى ابنه بإبعاد السهروردي ونفيه . .
ولكن الملك الظاهر ، وهو عليم بسر هذه المأساة التي أجادوا تمثيلها ، لم ينفذ أمر أبيه .

فثار اللغط من جديد . . وضح العلماء ، وانقسم الناس قسمين : قسم معه وقسم عليه .

قال القاضي ابن شداد :

« أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزنده والله أعلم » ! .

نعم ، ضج العلماء من سلوك الظاهر وتحيزه للرجل الذي حجّهم وكشف الكثير من جهالتهم ، وكان أكثرهم غيظاً وضجيجاً ، وأشدّهم نقمة الشيخان زين الدين ومجد الدين ابنا حميد . . فما كان منهما إلا أن أثارا نائرة العلماء فجمعوا جمعهم من جديد وطلبوا إلى الملك الظاهر في إلحاح شديد أن ينفذ أمر أبيه . . ويظهر أنهم أخرجوه عند أبيه وعند سواد الشعب معاً . ورأى أن خير طريقة للخروج من هذا الإلحاح أن يعقد مجلساً للمناظرة فيما هم مختلفون فيه مع غريمهم لاعتقاده أن السهروردي سيحجّهم وينتصر عليهم وتهدا نائرة هذه الضجة . . واستمهلهم أن يكتب إلى أبيه بذلك ، فرضوا بهذا الحل ، وكتب إلى أبيه يطلب منه الموافقة على عقد مجلس للمناظرة قبل أن ينفيه ، فوافق صلاح الدين على هذا الاقتراح . .

وذاع الخبر في المدينة . . وفي حلقات المدارس وأروقة الجوامع ... وسرى

فى نفوس العوام سريان النار فى المشيم ، وباتوا ينتظرون الحكم بالموت على هذا الزنديق المارق بلهف وشوق ... وقد حكموا هم عليه بالموت سلفاً قبل أن ينعقد مجلس المناظرة وقبل أن يصدر أمر السلطان بهدر دمه ... هذا هو منطق العوام ... وكثيراً ما تلعب الأهواء — ولا سيما الأهواء التى لها صلة بشئون الدين — دورها الخطير فى قضايا الفكر ...

وبعد أيام انعقد المجلس ، واحتشد العلماء ... وأخذت الأسئلة تنصب عليه من كل صوب ، وكان يجب عنها بهدوء واتزان ، ويدعم أجوبته بالبراهين والحجج — براهين أصحاب المنطق وحجج الفلاسفة وروحانية المتصوفين الذين يستمدون قواهم من روح الله ...

ودحضت هذه الحجج والبراهين ... فالفلسفة لون من الضلال والزيف ... ومن اشتغل بها كان فاسد العقيدة ... وارتفعت الأصوات فى وجه السهروردى تنكر عليه الاستدلال بالمناطقة فى مناظرته ... ولم تكن حججه مستمدة من أقوال الفلاسفة بل من صميم الدين ... ومع ذلك فقد اعتبرا وحججه سفسطة ... فزج العلوم الشرعية بالمنطق من البدع والمنكرات — بهذا المنطق كانوا يجادلونه ، ومع ذلك فقد تغلب عليهم وأفحمهم فى جميع القضايا التى أثاروها ... ولما طال الجدل بدون أن ينتهى إلى نتيجة وجهوا إليه السؤال الآتى :

«قالوا : ... إنك قلت فى بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً .. وهذا مستحيل .

قال : وما وجه استحالة؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمنع عليه شىء » فلم يفرق لسائله بين الممكن فى حد ذاته ، والممكن الذى أخبر القرآن بأنه لم يقع .

ولم يتركوه يدلى برأيه فوقفوا عند هذا الجواب وحكموا عليه بالكفر وجردوه من الإيمان واتهموه بانحلال العقيدة والتعطيل وسرعان ما نظموا وثيقة كفره وأذاعوها على الناس وهى تفتى بهدر دمه ..

أين هذه الوثيقة ؟ إن جميع من أرخ للملك الظاهر أو للسهروردى لم يوردوا نصها ، واكتفوا جميعهم بالإلماع إليها .

وهكذا فقد نجحت المؤامرة ، ورمى السهروردي بالكفر والتعطيل .
وحكم عليه بالموت .

وقد تأثر الملك الظاهر لهذه النهاية . حاول أن يصونه من دسائس الفقهاء
وأن يحميه من مؤامراتهم ، ولكن محاولته ذهبت بديداً . . وشاءت إرادة الله الذي
لا يمتنع عليه شيء حتى خلق النبوات أن يكون مصرع هذا الحكيم على يد من
اصطفاه وفضله على الكثيرين . . فقد أذعن الملك الظاهر إلى فتوى العلماء
وصدرت إرادته بتنفيذ الحكم !

ولكن كيف ينفذ الحكم ؟

أيقتل أم يصلب أم يسلم إلى خصومه وأتباعهم يقطعون جسم هذا الكافر
الزنديق إرباً إرباً ؟

يخيّل إلينا أن الملك الظاهر طلب من صديقه الفيلسوف أن يختار ميته ،
فطلب أن يحبس في مكان ما ، ويمنع عن الأكل والشرب إلى أن يموت . .
وكأنما أراد السهروردي أن يمتحن نفسه ، وأن يحقق نزعاته الصوفية بهذه
الميته التي أرادها له المتنطعون . . فحياة الصوفيين لون من العذاب ، أو هي
الفناء في سبيل الحقيقة العليا . وليس أحب إلى نفسه من أن يمتنع عن الأكل
وعن الشرب أياماً . . وأن يعيش زاهداً متقشفاً إلى أن يلقي ربه . .

لقد اختلفت الروايات في مصرعه . . .

في رواية : أن الملك الظاهر سجنه ثم خنقه في سجنه بقلعة حلب .

وفي رواية أخرى : أن السلطان أمر بقتله وصلبه أياماً .

وعن سبط بن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد أنه قال :

« لما كان يوم الجمعة ، بعد الصلاة في العاشر من ذي الحجة سنة سبع
وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب ففرق عنه
أصحابه » (١) .

نعم ، تفرقوا عنه وقبعوا في دورهم ينكرون هذا الطغيان الذي مس حرية
الفكر .

(١) روى بعض معاصريه أنه حين علم بصدور الحكم بقتله أخذ ينشد :

أرى قدي أراق دمي وهان دمي فها ندمي !

وقد تأثر الملك الظاهر وندم على فعلته . . وحقد كثيراً على من جرّوه إلى هذا المأزق الحرج الذى أودى بحياة هذا الفيلسوف الحكيم الذى تجرد عن الدنيويات ، وكتب فى عهد شبابه أصفى التأملات .

ندم الملك ، ولكن ما عساه يفعل انتقاماً لذكراه ؟
يقول المؤرخون :

« إنه نقم على جميع من أفتوا بقتله ، فقبض عليهم ونكبهم وصادر جماعة منهم بأموال عظيمة » .

فهل أرضى بفعلته هذه أنصار السهروردى ومريديه ؟

ربما .. ولكن هيئات أن يكون قد انتقم للفكر بعمله هذا ، وستظل مميّنة السهروردى لطخة سوداء فى تاريخ الظاهر الأيوبي على ما امتاز به حكمه من حسنات ^(١) .

(١) وبعد موته كتب كاتب على قبره ، بعد دفنه بظاهر حلب ، البيتين التاليين :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة مكنونة قد براها الله من شرف
فلم تكن تعرف الأيام قيمته فردها غيره منه إلى الصدف

وقبره اليوم معروف ، وهو ببلصق دار البريد القديمة المتخذة مركزاً لشرطة قسم « باب الفرج » أحد أحياء مدينة حلب . وذكره فى هذه المدينة لا يزال متصلاً وإن حُرقت العامة اسمه وقالت : بوابة « السارى وردى » بدل من بوابة السهروردى .

الفصل الثالث

جوانب السهروردى

١ - نزعتة الصوفية

فى الفترة القصيرة التى عاشها السهروردى ، وقد عرفنا أن دمه قد هدر وهو فى السادسة والثلاثين من عمره - فى هذه الفترة القصيرة استطاع أن يفتح مجرى طويلا فى حياة العقل .

فقد نزع منذ صغره نزعة المتصوفين الذين يزدرون كل مظاهر الحياة ، وتعزف نفوسهم عن كل مباهاجها ، ويعيشون حياة الزهد والتقشف ، همهم الخلاص مما هم فيه . . . من « شرط الوجود الإنسانى الضيق المتهافت الحدود لبلوغ درجة الخلود الأبدى والعيش السرمدى ونيل رتبة كونية إلهية » فقد رأى فى صوفية الحلاج الذى اندفع وراء النور الإلهى هذه الأضواء الجميلة التى اجتذبتة إلى عالمها ، فسرعان ما سعى وراء هذا العالم المغلق ، فلبس لباس الصوفيين مظهراً وحقيقة ، وتجلبب جلبابهم ، وطرس على آثارهم ، وشغل قلبه بكل ما يوصله إلى الفيض الإلهى . . .

« تباركت ربنا خالق النور ، ومبدأ الوجود ، ارزقنا شوق لقائك ، والصعود إلى جناب كبرياتك ، واجعل ذواتنا من الطاهرات الكاملات ، فالفارقات العائدات إليك ، إنك ولى الأيّد^(١) وصاحب الطول^(٢) العظيم المجيد^(٣) .

ولكن هذه الحياة الصوفية التى كشفت له الكثير من العوالم لم تشبع نهمه

(١) الأيّد : القوة .

(٢) الطول : القدرة .

(٣) فاتحة كتاب « التطويحات اللوحية والعرشية » ص ٢ من مجموعة « فى الحكمة المشرقية »

للسهروردى - نشر هـ . كوربان .

إلى المعرفة فقد حاول عن طريق العقل ، أن يصل إلى ما لم يصل إليه غيره من المتصوفين ومن الفلاسفة والمتكلمين . فعكف على دراسة حياتهم وقراءة كتبهم ومناقشة أقوالهم دراسة فهم وتدبر وتأمل دفعتهم إلى أن يرفض الكثير من الآراء بعد نقدها وغربلتها . . . وما زال إلى أن ارتضى لنفسه نزعة جديدة وفلسفة جديدة عدّها لباب الحكمة وفيضها المشرق .

ورأى في حياة الفلاسفة الذين عاش معهم ، عن طريق الفكر والروح ، الصفوة المختارة من أجناس البشر . . . فكانت « إنسانيته المشرقة » أبرز شيء في حياته الصوفية والفلسفية معاً . فالفلاسفة عنده « رجال أسرة واحدة ، وفروع شجرة مباركة بما فيها من ثمار وخيرات ، فأمدوقل ، وفيثاغورس ، وأفلاطون ، وأرسطوطاليس ، وبودا وهرمس ومزدك وماني ، وإن انتسبوا إلى شعوب مختلفة هم أبناء الإنسانية أولاً وبالذات ، ورسل السلام والإصلاح » (١) .

على أن امتزاج روحه بروحهم ، من ناحية التأمل والتفلسف ، ورؤية الحياة على حقيقتها ، لم تمنح شخصيته ، بل كان كأولئك الفلاسفة الأفاذا الذين يتناولون الفكرة لتحصيلها على مختلف الوجوه ، وكثيراً ما ينقدونها ليقيموا على أنقاضها أفكار جديدة تكون أكثر بهاء وأشدّ وهجاً وإشراقاً .

فالفلسفة اليونانية التي نقلها العرب ، ولا سيما المنطق الأرسططاليسي الذي ظل فترة طويلة « قانون العقل الذي لا يرد والمنهج العلمي الثابت ، تعاريفه وحدوده ثابتة ، وأحكامه وقضاياها مسلمة ، وأقيسته منتجة لليقين وموصلة إلى العلم من حيث هو » (٢) — إن هذا المنطق الممزوج بإلهيات الفلاسفة قد اعتبره الكثير من الفقهاء والأصوليين والمتكلمين مما يخالف عقائد المسلمين ، وقد تصدى لنقده كثيرون وأقاموا منهجاً جديداً استمدوا أصوله من روح إسلامية بحتة . . .

وقد وقف السهروردي إزاء هذا الصراع الفلسفي موقف الباحث المفكر الذي يناقش الفكرة من حيث هي مجردة عن كل لبس وغموض — وقف من

(١) « حكمة الإشراق » ص ٣٧١ .

(٢) « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » لعلى سامى النشار ص ٣ .

المنطق الأرسططاليسى مثلاً موقفاً مزدوجاً ، رفضه أولاً ، ثم وضع منطقاً جديداً ثانياً وهو بهذا قد جعل التفكير الحر أساس بحوثه ، وقد دعم لون تفكيره بذوق صوفي « لم يحصل لى أولاً بالفكر ، بل كان حصوله بأمر آخر . . . ثم طلبت عليه الحجة »^(١) أى أنه حصل عليه بالذوق ، ثم حاول البرهنة عليه نظرياً .

لقد أقام السهروردى تصوفه على دعائم فلسفية . . أو أنه — وهذا الأصح — قد أقام دعائم فلسفته على إشراقات صوفية ، فما من فكرة أو حالة عرضت له إلا أعمل فيها روحه وذوقه وفلسفته ، وقد سمى الكثير من أبحاثه الجديدة « ضوابط إشراقية » ففي كتابه « حكمة الإشراق » يقرر أن بحوثه تبدأ على سياق يبنى على الذوق والكشف ومشاهدة الأنوار بخلاف سياق المشائين الذى يبنى على البحث الصرف .

قرأ الفلاسفة اليونانية قراءة درس وتبصر ، وقايسها على غيرها من الفلاسفات ، وأعطاها رفيع منزلتها ، ثم عكس عليها هذه الأضواء من روحه وذوقه وكشفه ونزعاته . . وإذا هو ينقض الكثير من أسسها ليقم على أنقاضها فلسفة جديدة أطلق عليها أئمة الفكر من شرقيين وغربيين « الفلسفة الإشراقية » واعتبروا السهروردى مبدعها وواضع أسسها ومدرستها .
ما هى خطوط هذه الفلسفة ؟

٢ — فلسفته

إن مبدأ الفلاسفة الإشراقية وأساسها الأول — « أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت نوار أخرى هى عماد العالم المادى والروحي ، والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها »^(٢) .

فالإشراق ، بمدلوله العميق ، هو « الكشف » أى ظهور الأنوار العقلية ولعانها وفيضانها بالإشراقات على الأنفس عند تجردها .

(١) « شرح حكمة الإشراق » ص ١٦ .

(٢) « هياكل النور » ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ . « والفلسفة الإسلامية » لإبراهيم مدكور ص ٦٠ .

لقد شغل السهروردى بالإشراق عن كل شىء فى الحياة - وإنا لنلمس
نفحات هذه الفلسفة فى الكثير من كلماته ودعواته التى كان يرددها فى
خلواته :

« الإشراق سبيلك اللهم ، ونحن عبيدك
« نعتز بك ، ولا نتذلل لغيرك
« لأنك أنت المبدأ الأول ، والغاية القصوى
« منك القوة وعليك التكلان . . .
« أعنّا على ما أمرت
« وتمم علينا ما أنعمت
« ووقفنا لما نحب ونرضى
إلخ » (١) .

إن « الإشراق » هو سبيله إلى الفيض العلوى - هذا الفيض الذى لا يتجلى
إلا على من أشرب قلبه بحب الحكمة ... وقد أحب السهروردى الحكمة ومزج
نفسه بها حتى لقب بالحكيم ... ولا يطلق لقب الحكيم عنده إلا على من له
مشاهدة للأمور العلوية ، وذوق مع هذا وتأله .
ويرى أن أول الشروع فى الحكمة :

- ١ - الانسلاخ عن الدنيا
- ٣ - مشاهدة الأنوار الإلهية
- ٣ - ما لا نهاية له (٢)

لقد قرن السهروردى الفلسفة إلى التصوف كما قلنا ، وأطلق على الفيلسوف
المتصوف لقب « الحكيم المتأله » وهو عنده أن يكون على ارتباط وثيق بالصوفى
الذى يتذوق . . . وإلى هذا أشار فى كتابه « حكمة الإشراق » أن كتابه هذا
« لطالبى التأله والبحث ، وليس للباحث الذى لم يتأله ولم يطالب التأله فيه نصيب ..
ولانباحث فى هذا الكتاب ورموزه لإلامع المجتهد المتأله ، أو الطالب للتأله ، فمن أراد

(١) « المشارع والمطارحات » ص ١٩٦ .

(٢) « المشارع والمطارحات » ص ١٩٥ ، ١٩٦ تحقيق هـ . كوربان .

البحث وحده فعليه بطريقة المشائين. فإنها جنة للبحث وحده، محكمة، وليس لنا معه كلام ومباحث في القواعد الإشرافية، بل الإشراقيون، لا ينتظم أمرهم دون سوانح نورانية» (١).

ويشرح لنا هذه الفكرة، بوضوح أشمل فيقول:

«... وفي الجملة (الحكيم المتأله) هو الذى يصير بدنه كقسيص يخلعه تارة ويلبسه أخرى... ولا يعد الإنسان في الحكماء ما لم يطلع على الحميرة المقدسة، وما لم يخلع ويلبس، فإن شاء عرج إلى النور، وإن شاء ظهر في أى صورة أراد... وأما القدرة فإنها تحصل عليه بالنور الشارق عليه. ألم تر أن الحديد الحامية إذا أثرت فيها النار تشبه بالنار وتستضيء وتحرق؟ فالنفس من جوهر القدس، إذا انفعلت بالنور واكتست لباس الشروق أثرت وفعلت: فتوحي فيحصل الشيء بإيمائها، وتتصور فيقع على حسب تصورها... فالدجالون يخالون بالخارق والمستنير الفاضل المحب للنظام، البريء من الشر يؤثر بتأييد النور لأنه وليد القدس» (٢).

فلسفته تستمد أصولها من روح صوفية مشرقة، وهو يريد من الصوفي الفيلسوف أن يصل إلى مرتبة «الحكيم المتأله» الذى يجمع في أطواء نفسه الحكمة والتجرد والانسلاخ عن الدنيا للوصول إلى الذات الإلهية.

ورأى بعض الباحثين، ولا سيما بعض المستشرقين، أن هذه الفلسفة ذات اتصال وثيق بالفلسفة اليونانية، وبفلسفة الفرس، وأن ابن سينا قد عرض لها قبل السهروردي...

يقول كلمان هيوار:

«حكمة الإشراق - هى نوع من تصوف الأفلاطونية الحديثة، فهى الفلسفة المشرقية التى ظهرت فى أيام ابن سينا وصنف فيها رسالة سماها "الحكمة المشرقية" وكان لها طابع من الإبهام تحررت منه بعد ذلك» (٣).

(١)، (٢) «المشارع والمطارحات» ص ٥٠٤ من مجموعة «فى الحكمة الإلهية» تحقيق هـ.

كوربان.

(٣) «دائرة المعارف الإسلامية» مجلد ٨ عدد ١ ص ١٤.

ويقول ده بور :

« الإشراقيون الحكماء ، أتباع المذهب القائل بحكمة الإشراق أو الحكمة المشرقية ، ويطلق هذا الاسم بوجه خاص على تلاميذ السهروردي .
وهذه الحكمة هي عبارة عن مذهب التوفيق في الفلسفة اليونانية الذي انتقل إلى الشرق في كتب الأفلاطونية الجديدة ، وهرمس وما شابهها ، وامتزج بكتب الفرس وغيرهم ، وهي فلسفة روحانية لها في نظرية المعرفة مذهب صوفي ، وتعبّر عن الله وعن "عالم العقول" بالنور . . . والمعرفة الإنسانية في هذا المذهب عبارة عن إلهام من العالم الأعلى يصل إلينا بواسطة عقول الأفلاك ، وأكبر أصحاب هذا المذهب هم هرمس وأجا ثؤمين ، وأبندوقليس وفيثاغورس وغيرهم ، ولأفلاطون بهذا المذهب أكثر من صلة أرسطوية ، وهؤلاء الفلاسفة يوصفون غالباً بأنهم أنبياء وحكماء وملهمون ، وقد تأثرت الفلسفة الإسلامية بهذا المذهب منذ نشأتها إلى وقتنا الحاضر تأثراً كبيراً . وأتباع مذهب المشائين ^(١) في الإسلام متأثرون بالفلسفة الإشراقية بعض الشيء . . . وربما كان أقلهم تأثراً بها الفيلسوف ابن رشد » ^(٢) .

ومع اتصال فلسفة الإشراق ببعض المذاهب التي انبثقت في فارس وعند الإغريق فقد صهر السهروردي آراء من تقدم ببروتقة من كشفه وذوقه ومواجهته وخرّجها صورة نقية تعبّر عن روح وحكمة وفلسفة ، وهذا الذي جعل هذه الفلسفة توسم باسمه .

رد السهروردي كل شيء في العالم إلى نور الله وفيضه ، وهذا النور هو « الإشراق » .

« وإذا كان العالم قد برز من إشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة - الفيض والإشراق - فإذا تجردنا عن الملذات الجسدية ، تجلى علينا نور إلهي لا يقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنساني وهو الواهب لجميع الصور ،

(١) المشاؤون هم تلاميذ أرسطو ، سموهم كذلك لأنه كان يعلمهم وهو يتمشى في أروقة المعهد .

(٢) « دائرة المعارف الإسلامية » المجلد الثاني ص ٢١٢ .

ومصدر النفوس على اختلافها ، ويسمى "الروح المقدسة" أو بلغة الفلاسفة "العقل الفعال" ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة ، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم^(١) .
وأكد السهروردي هذا المعنى بقوله :

« . . . إن النفوس الناطقة من جوهر الملوكوت ، إنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلها . . . فإذا قويت النفس بالفضائل الروحية ، وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تنخلص أحياناً إلى عالم القدس . وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف وتتصل بالنفوس الفاكية العاملة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منه المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش^(٢) » .

٣ - شعره

للشعر الصوفي في أدبنا العربي ، لونه الخاص ، وجوه الخاص ، وعبيره المسكر الذي يرتفع بالقارئ من العالم السفلى إلى العالم العلوى . . . وهو يتميز بألفاظ وتعايير واصطلاحات خلقها الصوفيون خلقاً فليستهم ولمسوها وعبروا فيها عن ذوات أنفسهم وأنات قلوبهم وحالات الوجد والشوق والغيبوبة التي تمر بهم ، وقد يتسم الكثير من شعرهم بسمة الغموض لمن لا يدرك اصطلاحاتهم ، ولا يعرف ما ترمى إليه ألفاظهم وتعاييرهم ، ذلك لأنهم « يؤثرون الإشارة على العبارة ، ويعمدون إلى التلميح دون التصريح ، سترأ لحقائقهم ، وكتما لأسرارهم وغيره على هذه الحقائق » .

وهو لون من الشعر الرمزي الذي ساد مذهبه عند الكثيرين من شعراء هذا العصر . . . وربما كانت رمزية شعرنا الصوفي أدق في المبنى ، وأصفي في

(١) « حكمة الإشراق » ص ٣٧١ .

(٢) « هياكل النور » ص ٤٤ ، ٤٥ .

المعنى لأنه يصوّر حالات فلسفية تصدر عن الذات التي ترى حياتها أو خلودها في الفناء . . . ويصور، إلى هذا ، أخيلة وهواجس تتلاقى في غريب صورها عوالم الوجد والشوق والبهاء . . . فكلمة «السفر» عندهم هي عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق .

و « المسافر » هو الذى يسافر بفكره فى المعقولات والاعتبارات .
وكلمة « الأنس » هي أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية فى القلب ، وهو جمال الجلال .

وكلمة « الوجد » ترمز إلى ما يصادف القلب من الأجوال المغنية عن شهوده .
وكلمة « الوجود » هي وجدان الحق فى الوجد .
ولا مجال لعدد الكثر من الألفاظ والتعابير . . . فهي تختلف فى مدلولها عما يرمز إليه الكتاب والشعراء الذين لم تدركهم مواجيد الصوفيين .
وربما طالت تفسيراتهم للكلمة الواحدة ، فقد فسر أحد كبار المتصوفين كلمة « الوصول » بقوله :

« إذا ذلك به عليه ، كنت منه وإليه .
وإذا أفناك عن الإحساس ، كنت فى حضرة الإيناس .
وإذا كاشفك بحبه ، لم تتلذذ إلا بقربه .
وإذا غيبك عن شهودك ، تجلى لك من وجودك » .

وفى قاموس الصوفيين عشرات الكلمات ومئات الاصطلاحات ، ولكل كلمة معناها ، ولكل اصطلاح ، كما قلنا ، مغزاه ودلالته على حالة من الحالات . . . فحذرهم ، ليست الحمرة المعصورة من كروم العنب والتي تصرع الألباب ، بل . . . هي « الحمرة الإلهية » التي تريهم نور الحق والتي سكروا بها من قبل أن يخلق الكرم كما يقول ابن الفارض :

صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوا ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ، ولا شكل هناك ولا رسم
ويوضح محي الدين بن عربي ، هذه الناحية فيذكر اضطرار الصوفيين إلى استعمال ألفاظ يدل ظاهرها على معانى أعمق مما يتصوره القارئ بقوله :

«... فكل اسم أذكره في هذا الجزء^(١) فعنها أكنى - يريد الحقيقة الإلهية - وكل دار أندبها فدارها أعنى... ولم أزل في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية ، والتزلات الروحانية ، والمناسبات العلوية ، جرياً على طريقتنا المثلى ، فإن الآخرة خير لنا من الأولى ، والله يعصم قارئ هذا الديوان من سبق خاطره إلى ما لا يليق بالنفوس الأبية ، والهضم العلية ، المتعلقة بالأمور السماوية ، وجعلت العبارة في ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعى على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب طريف ، روحاني لطيف » .

وبعد فلا نريد في هذا الفصل أن نطيل الحديث عن الشعر الصوفي ، عن رموزه وإشاراته ، فمجال الحديث عنه واسع ، وليس شعر السهروردي مما يدق على الأفهام لغموض ألفاظه ، بل الأمر بالعكس ، فهو واضح كل الوضوح... ولكن أردنا من هذه التوطئة ، في حديثنا عن شعره أن نقول إن الكلمات التي جاءت في شعره - أكثرها كلمات وتعابير صوفية ترمز إلى وجده الشديد في بحثه عن الذات العليا ، وشعره - بالرغم من إيغاله في الدراسات الفلسفية - سوانح ولحات كان ينفّس بها عن حالات الوجد التي تتناوبه ، وما لدينا من شعره قليل ، ولا يخامرنا أى ريب بأن الكثير من شعره مفقود وليس بين أيدينا غير عدة مقطوعات وقصيدته الحائية المتداولة في أروقة الصوفيين :

أبدأ تحنّ إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

وهي أكثر قصائده شيعياً ، ترسم بعض حالات وجده ، وتصور هواجس نفسه حين يغيب عن العالم الذي يعيش في خضمه ليقترن بالذات الإلهية... وهي نفحة عبقة من الشعر الغنائي الذي ينشده الصوفيون في خلواتهم وحلقات أذكاهم. نعم ، فجو القصيدة جو صوفي ، يرينا حنين العاشق وشوقه وتدلّاه ، وتأرجح أيامه بين الوصل والهجر... وهو لا يصف ذاته فحسب ، بل يرى في « ذاته » ذوات جميع المعذبين بالحب ، المكتوين بناره ، فكل العشاق في محنتهم سواء...

(١) « ذخائر الأعلاق ، شرح ترجمان الأشواق » بيروت ١٣١٢ هـ ص ٤ ، ٥ .

وارحمنا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح

إنه يريد أن يكون في معزل عن العالم ، يريد أن يكتم حبه وأن لا تتم حالاته اللاشعورية عن وجوده وحرقة وألمه . . . ولكن أنسى له ذلك والهوى فضاح . وتنتابه الهواجس . . . إنه بين أمرين خطيرين - أيوح بحبه فيكون ثمن البوح هدر دمه أم يكتم هذا الحب وهو غير قادر على كتمان . . . ولو حاول كتمان حبه فدموعه تنم عما يقاسيه من ألم وجوى ، وما ينتاب جسمه من نحول وسقام وضى . . . إذن لابد له من أن يذل نفسه ويتحمل المهانة في سبيل محبوبه . . لا جناح عليه أن يخفض جناحه فنفسه مشتاقة إلى اللقاء بأى ثمن :

وبدت شواهد للسقام عليهم فيها لمشكل . أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم ، وليس عليكم للصب في خفض الجناح جناح
فإلى لقاءكم نفسه مشتاقة وإلى رضاكم طرفه طماح

إنه في ثورة هائجة من الألم الممض . كيف السبيل إلى لقاء الحبيب ؟
لقد وطن النفس على أن يتحمل ما لا يتحمله إنسان إلى أن ينجلى ليله الطويل عن إشراقة الصباح . وما الإشراقة التي تبدد ظلمة النفس إلا الوصال ، هكذا صفة العشاق المدمنين ، يطرقون باب حبيبهم بدون ملل ، يطرقونه آناء الليل وأطراف النهار . . لا يترجعون حتى يبلغوا أمنياتهم العذبة . . . وأمنياتهم هي اللقاء . . . هي الفناء في ذات محبوبهم . . . ولطالما سفكوا نجي الدموع التي جعلوا منها بجرأ ، ومن حادى الشوق ملأ حاً ينقلهم من ضفة إلى ضفة ، من بحر زاخر بالموبقات إلى بحر تطفو على سطحه المثاليات . . هنا . . . أى حين تتحقق أمنية اللقاء بعد هذا الشوق والوجد والمجرب الطويل يشعرون برعشات علوية تنسيهم نفوسهم . . . إنهم مع الحبيب وجهاً لوجه . . . لقد تماكهم الطرب وأخذوا يصيحون كالمدوهين من شدة فرحهم . . .

ففي لحظات اللقاء ينسى العاشق ذاته من فرط وجوده ويقظة نشوته . . . إنه يدعو النديم أن يهيئ له أدوات الشراب . . . يريد أن يبل ظمأه بعد هذا الحرمان الطويل . . . فما هي خمرته التي تشع أضواؤها في نفسه ؟ . . . إنها الخمرة الإلهية لا الخمرة التي تعصرها الأيدي وتدوسها الأقدام .

هذا هو جو قصيدة السهروردي الحائية (١) .

وفي للماعى إليها وهي من أجمل الشعر الوجدى الذى تتلاقى فى كل بيت من أبياته حالة من حالات الصوفيين ، أردت أن أشير إلى شعر هذا الحكيم المتصوف الذى لم يترك باباً من أبواب الحياة العقلية ، ولا مفارقة من مفازات النفس إلا طرقها ووجلها باطمئنان . . .

ولأسلوبه الشعرى هذا الجرس الذى يتصل بجوهر النفس ، ومن المؤسف أن لا يصل إلينا من شعره غير هذه القصيدة وعدة مقطوعات فى أغراض تتصل بذاته ، وإن من تتوافر عنده هذه السليقة الشعرية لا بد أن يكون له عشرات القصائد والمقطوعات التى تؤلف ديواناً . . . فأين ديوانه ؟ نحن نميل إلى أنه قد فقد كما فقدت أكثر تأليفه . . .

وأنا موقن أن له غير هذا الشعر الذى نشرناه فى باب المنتخبات من هذا الكتاب ، ولعل خصوصه قد أتلّفوه كما أتلّفوا كتبه ، ونرجو أن نكون مخطئين فى افتراضنا ، وأن تكشف لنا الأيام عن ديوانه ، فيكون لقراء فلسفته خير معين على تفهم الكثير من تأملاته فى شتى مفازات الحياة وغوامض الكون .

٤ - آثاره

إن حياة العقل التى عاشها السهروردي ممزوجة بحياة التصوف التى نشدها من وراء الفيض العلوى قد كوّنت منه إنساناً ترك فى التفكير الإسلامى آثاراً لغفت إليه كبار المفكرين ولا سيما فى عصرنا هذا حيث بدعوا يلتفتون إلى كتبه ورسائله ، وكلما أمعنوا ببحثها ظهر لهم لون جديد من تفكيره الحر ونزعاته الإنسانية التى تمثلت عنده فى أعلى درجاتها ، فاعتبروا « فلسفة أو حكمة الإشراق التى وضع أسسها بمثابة النزعة الإنسانية الحقيقية فى الفكر العربى » (٢) .

وقد بلغت كتبه ، كما ذكر تلميذه الشهرزورى ٤٩ مؤلفاً. وذكر المستشرق الألمانى

(١) اطلبها فى الفصل الرابع فى هذا الكتاب .

(٢) « الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى » للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٦٢ .

الدكتور « ا . ريتز » حين عرض لتحليل ووصف مخطوطات السهروردي الموجودة في إستانبول أنها في ثلاث وتسعين رسالة . . . وأكثرها كتب بالعربية ، وبعضها بالفارسية ، وقسم ثالث احتوى على ترجمات لمؤلفاته العربية إلى الفارسية قام بها هو نفسه ، وعلى رأسها كتابه « حكمة الإشراق » .

وحين يتأمل الباحث بعض مؤلفاته ، ويرى هذه القدرة على الغوص إلى أدق النزعات الفلسفية يأخذه العجب من عبقرية هذا الإنسان الذي استطاع ، في هذه الفترة القصيرة من عمره الغرض ، أن يؤلف هذه الكتب ، مع انشغال قلبه بالتصوف ، وعدم تفرغه للتأليف .

لا شك أن التراث الفكري الذي تركه السهروردي يضعه في مصاف العباقرة الأفاض . . . وأن من يريد التوسع بالنفاذ إلى جوهر فلسفته لابد له من الرجوع إلى كتبه ورسائله ، وهي تؤلف سفيراً ضخماً في الحكمة الإلهية أو الفلسفة المشرقية ضمت كل ما يمكن أن يتناوله فيلسوف متصوف قضى عمره في البحث والدرس والتجرد للوصول إلى الذات العليا . . . فكان مصيره من المتحذلقين المشعوذين الذين يعنون بالعرض دون الجوهر ، القتل وهو في ريعان شبابه .
ونحن نثبت هنا أسماء المصنفات التي وضعها ليرجع إليها من يود التوسع بدراسة آراء هذا الفيلسوف الإشراقي :

- ١ - « هياكل النور » - مطبعة السعادة ، مصر ١٣٣٥ هـ .
- ٢ - « حكمة الإشراق » - طبع حيدر - طهران سنة ١٣١٦ هـ .
- ٣ - رسالة « أصوات أجنحة إسرائيل »^(١) .
- ٤ - رسالة « مؤنس العشاق »^(٢) .
- ٥ - النص العربي لترجمة « رسالة الطير » لابن سينا إلى الفارسية .

(١) رسالة فلسفية صوفية كتبها السهروردي بالفارسية بعنوان « أوزبر جبرائيل » وقد نشرها وترجمها مع مقدمة وتعليقات المستشرق « هنري كوربان » و « باول كراوس » في « المجلة الآسيوية » عدد يولية - سبتمبر سنة ١٩٣٥ ص ١ - ٨٢ ونشر النص المترجم من قبل « كراوس » الدكتور عبد الرحمن بدوي في نهاية كتابه « شخصيات قلقة في الإسلام » ص ١٣٦ - ١٥٦ مع شرح واف لها .
(٢) نشرتها الفارسي الدكتور « أتوه أشييس » في دلهي سنة ١٩٣٤ وترجمها إلى الفرنسية « هنري كوربان » .

٦ - « مجموعة في الحكمة الإلهية » - مطبعة المعارف ، إستانبول ١٩٤٥ عن « النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » وقد عني بتصحيح هذه المجموعة « هـ . كوربان » مع مقدمة بالفرنسية عن مبدأ الإشراق والحكمة المشرقية وأسس الفلسفة الإشراقية وهي مبحث شامل .

وقد تضمن هذا المصنف الضخم وهو في ٥١١ صفحة من القطع الكبير عدا المقدمة التي بلغت صفحاتها ٨٠ صفحة - تضمن الكتب الآتية :

١ - « كتاب التلويحات اللوحية والعرشية » وهو في ثلاثة علوم : المنطق والطبيعي والإلهي .

٢ - « كتاب المقاومات » وهو لواحق على كتاب التلويحات .

٣ - « كتاب المشارع والمطارحات » وهو كتاب في المنطق والفلسفة والتصوف .

٤ - « التنقيحات في أصول الفقه » .

٥ - « اللوحات » .

٦ - « الألواح العمادية » ، وهو عجالة في المبدأ والمعاد على رأى الإلهيين .

٧ - « ابن طفيل » - رسالة الغربة الغربية - نشرها الدكتور أحمد أمين في

مجموعة رسائل حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي . دار المعارف بمصر ١٩٥٢ .

٨ - « رسالة صفيير سيميرغ » بالفارسية نشرها أشيبس وختك في

ثلاث رسائل . ترجمة فرنسية في مجلة هرمس ٣ - ١٩٣٩

٩ - « كتاب علم الهدى وأسرار الاهتداء » .

١٠ - « كتاب المعارج » .

١١ - « عوارف المعارف » .

والكتب التي نشرت ، وهي جزء ضئيل مما كتبه ، تؤرخ ناحية من نواحي عبقريته الفذة . . . ونحن إذ نكتفي بهذه اللوحة من حياة هذا الفيلسوف الحكيم ، نختار للقارئ بعض نصوص من كتبه ، وهي كلمات ورموز وإشارات في المعرفة الإلهية تريينا كيف أن الجهل قد طغى على المعرفة حين تأمر الفقهاء على

مصرعه وهو في ريعان شبابه فخسرت الفلسفة الإسلامية إماماً من أئمتها وجهبذاً
 فتح في تاريخ العقلية العربية نوافذ جديدة للبحث والفلسفة القديمة في ضوء من
 الإشراق . ومبدؤها ، كما علمنا ، أى مبدأ الفلسفة الإشراقية وأساسها ، أن الله
 نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي
 عماد العالم المادى والروحى ، والعقول العارفة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار
 تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها .

الفصل الرابع

منتخباتٌ من آثار السهروردي

١ - السهروردي المتصوف

دعاء

من تخرصات خصومه اتهامه بانحلال العقيدة والتعطيل ولكن من يقرأ هذه النفحات التي كتبها وفاض بها قلبه المشرب بحب المعرفة الإلهية ينفي عنه ذلك . وهي تدل على إيمانه العميق وصوفيته الموعلة بالتجرد والإشراق .

الله . . .

يا قيامَ الوجود ، وفائضَ الجود ، ومنزلَ البركات ، ومنتهى الرغبات ،
منورَ النور ، ومدبرَ الأمور ، واهبَ حياة العالمين . .

أمددنا بنورك ، ووفقنا لمرضايتك ، وألهمنا رشدك ، وطهرنا من رجس
الظلمات ، وخلصنا من غسق^(١) الطبيعة إلى مشاهدة أنوارك ، ومعاينة
أضوائك . ومجاورة مقرّيك ، وموافقة سُكّان ملكوتك . .

واحشرنا^(٢) مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة ، والصدّيقين ، والأنبياء
والمرسلين^(٣) .

(١) الغسق : ظلمة أول الليل . (٢) حشر الناس : جمعهم .

(٣) هذه المناجاة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٤٢ م مجاميع وعليها شرح لمحمد الإسفراني .

مناجاة

إلهي وإله جميع الموجودات ، من المعقولات والمحسوسات .
يا واهبَ النفوس والعقول ، ومخترعَ ماهياتِ الأركانِ والأصول .
يا واجبَ الوجُودِ ، ويا فائِضَ الجُودِ .
ويا جاعِلَ القلوبِ والأرْواحِ ، ويا فاعِلَ الصُّورِ والأشباحِ .
يا نورَ الأنوارِ ، ومدبِّرَ كلِّ الدُّوارِ .
أنتَ الأولُ الذي لا أوَّلَ قَبْلَكَ .
وأنتَ الآخرُ الذي لا آخَرَ بَعْدَكَ .
الملائكةُ عاجزونُ عن إدراكِ جلالِكَ .
والنَّاسُ قاصرونُ عن معرفةِ كمالِ ذاتِكَ .
أَللَّهُمَّ خَلِّصْنَا عن العلائِقِ الدنيَّةِ الجَسَمانيَّةِ .
ونجِّنا من العوائِقِ الرَّدِيَّةِ الظَّالِمانيَّةِ .
أرسلْ على أرواحِنَا شِوارِقَ أنوارِكَ .
وأفِضْ على نفوسِنَا بوارِقَ آثارِكَ .
العقلُ قطرةٌ من قطراتِ بحارِ ملكوتِكَ .
والنفسُ شُعلةٌ من شُعلاتِ نارِ جَبَرُوتِكَ ^(١) .
ذاتِكَ فَيَاضَةٌ ، تفيضُ منها جواهرُ روحانيَّةٍ ، لا متمكنة ولا متحيِّزة ،
ولا متَّصلة ولا منفصلة ، مُبرَّاة عن الأحيازِ والأَيُنِ ^(٢) ، مُعرَّاة عن الوصلِ والبينِ ^(٣) .

(١) الجبروت : القدرة والسطوة . (٢) الأحياز : جمع حيز : المكان وقد يكون بمعنى

الحوز : للأخذ . الأين : الحين ، والتعب والإعياء . (٣) البين : الفراق .

وسبحان الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تمثله الأفكار .
لك الحمدُ والثناء ، ومنك المنعُ والعطاء ، ولك الجود والبقاء ، فسبحان
الذى بيده ملكوتُ كلِّ شيء وإليه ترجعون^(١) .

يا قيوم

أَيَّدْنَا بِالنُّورِ ، وَثَبَّتْنَا عَلَى النُّورِ ، وَاحْشَرْنَا إِلَى النُّورِ ، وَاجْعَلْ مِنْتَهَى مَطْلِبِنَا
رِضَاكَ ، وَأَقْصَى مَقَاصِدِنَا مَا يُعِدُّنَا لَأَنْ نَلْقَاكَ ، ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا لَسْتَ عَلَى الْفِيضِ
بِضْنِينَ^(٢) ، أَسَارَى الظُّلُمَاتِ بِالْبَابِ قِيَامٌ يَنْتَظِرُونَ الرَّحْمَةَ وَيَرْجُونَ الْخَيْرَ وَفَكَ
الْأَسِيرِ ، وَالْخَيْرُ رِضَاؤُكَ وَالشَّرُّ قِضَاؤُكَ . أَنْتَ بِالْجَدِّ الْأَسْنَى^(٣) تَقْتَضِي الْمَكَارِمَ ،
وَأَبْنَاءُ النَّوَاسِيتِ^(٤) لَيْسُوا بِمَرَاتِبِ الْإِنْتِقَامِ ، بَارِكْ فِي الذِّكْرِ ، وَارْفَعِ السَّوْءَ ،
وَوَفِّقِ الْحَسَنِينَ^(٥) .

إِيْمَان

رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ ، وَأَقَرَّرْنَا بِرِسَالَتِكَ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ مَلَكُوتَكَ مَرَاتِبٌ ، وَأَنَّ لَكَ
عِبَادًا مُتَأَلِّهِينَ ، يَتَوَسَّلُونَ بِالنُّورِ إِلَى النُّورِ عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ يَهْجُرُونَ النُّورَ لِلظُّلُمَاتِ
لِيَتَوَصَّلُوا بِالظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ فَيَجْعَلُونَ بِحَرَكَاتِ الْجَانِّينَ قِرَّةَ عَيْنِ الْعُقَلَاءِ وَعَدَّتِهِمْ

(١) عن مخطوط بدار الكتب المصرية وقد رجع إليه الأستاذ أحمد أحمد بدوى رقم ٤٤٨ فلسفة ،
ومطبوع رقم ٢٠٥ ، ٢٠٦ فلسفة .

(٢) ضنين : بخيل .

(٣) الأسنى : الرفيع .

(٤) النواسيت : جمع الناسوت : الطبيعة الإنسانية وهو الناس زيد فى آخره واو وتاء كملكوت .

(٥) « هياكل النور » ص ٨ - ٩ .

الزُّلْفَى^(١) ، وأرسلت لهم رياحاً لتحملهم إلى عليين ليمجدوا سبحانك ، وليحملوا أسفارك ، وليتعلّقوا بأجنحة الكرويين^(٢) ، وليصعدوا بجبل الشعاع ، وليستعينوا بالوحشة والدّهشة ، لينالوا الأنس ، أولئك هم الصّاعدون إلى السّماء ، والقاعدون على الأرض ، أيقظ اللهمّ النّاعسات من النفوس في مراقد الغفلات ، ليذكروا اسمك ، ويقدسوا مجدك ، كمّل حصّتنا من العلم والصبر ، فإنهما أبوا الفضائل ، وارزقنا الرّضا بالقضاء ، واجعل الفتوة حليفتنا ، والإشراق سبيلنا ، إنك بالجدود الأعمّ على العالمين منّان ، والله تعالى خير من أعان ، ولسوله الصلاة والسّلام والتّحية والرّضوان^(٣) .

التوبة

نادى منادٍ من الملائكة حفت من حول عرش النّور أن — يأيّها التّايهون في مهمه البوار^(٤) .

إن أبواب السموات تُفتح في صبيحة كلّ جمعة طلعت شمسٌ عن مغاربها ، فهلمّوا إلى الباب الأكبر وحرّكوا الذكر الحكيم وقولوا :
يا آخذ النّواصي^(٥) .

بدأت فتمّم ، خلقت فاهد ، قضيت فاعف ، ملكت فاغفر .
يا واهب الحياة حقّاً :

(١) الزلفى : القربة .

(٢) الكرويين وقد تبدل الكاف شيئاً : سادة الملائكة أو المقرّبون منهم وبالعبرائية : كروبيم .

(٣) « هياكل النور » ص ٤٧ - ٤٨ .

(٤) المهمه . القفر . البوار : الهلاك .

(٥) النواصي : جمع ناصية ، مقدم الرأس . ونواصي الناس أشرفهم .

بِإِيبَاكَ عِبْدٌ مِّنْ عِبَادِكَ أَتَىٰ مِنْ «رَجَسِ الْهَيُولَىٰ» تَائِبًا ، أَفِيرْجِعُ مِنْ
 رُوحِكَ خَائِبًا ؟
 يَا مَنْ غَوَاشِي^(١) نوره أضاءت الذواتِ الذَّاكِرَاتِ ، وطوالعُ مواهبهِ زِينُ
 الأرواحِ السَّابِحَاتِ .
 إِنْ نَفْسًا طَلَبْتِكَ فَلَا تَرُدَّهَا فِي انْقِلَابِ النَّاكِسِينَ ، فَارْحَمْ ، وَانصُرْ ،
 وَاعصِمْ ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَاصِمِينَ^(٢) .

يَا نُورَ كُلِّ نُورٍ

إِلَهْنَا وَإِلَهَ مَبَادِينَا .
 يَا قَيُّومُ ، يَا حَيُّ ، يَا كُلُّ ، يَا مَبْدَأَ الْكُلِّ .
 يَا نُورَ كُلِّ نُورٍ ، يَا فَايِضَ كُلِّ خَيْرٍ وَجُودٍ .
 خَلَّصْنَا إِلَى مَشَاهِدِ عَالَمِ رَبِّهِ نَبِيَّتِكَ .
 نَجِّنَا عَنْ قَيْدِ الْهَيُولَى .
 أَذِقْنَا بَرْدَ عَفْوِكَ وَحُلَاوَةَ مَنَاجَاتِكَ . .
 يَا رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ عَقْلٍ وَنَفْسٍ .
 أَرْسِلْ عَلَى قُلُوبِنَا رِيَّاحَ رَحْمَتِكَ ، وَأَخْرِجْنَا عَنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلِهَا ،
 وَأَنْزِلْ عَلَى أَرْوَاحِنَا لَوَامِعَ بَرَكَاتِكَ ، وَأَفِضْ عَلَى نَفُوسِنَا أَنْوَارَ خَيْرَاتِكَ .
 يَسِّرِ الْعُرُوجَ إِلَى سَمَاءِ الْقُدُسِ ، وَالِاتِّصَالَ بِالرُّوحَانِيِّينَ ، وَحِجَاوَةَ الْمُعْتَكِفِينَ فِي
 حَضْرَةِ الْجَبَرُوتِ الْمُطْمَئِنِّينَ ، فِي غُرَفَاتِ الْمَدِينَةِ الرُّوحَانِيَةِ الَّتِي هِيَ وَرَاءَ الْوَرَاءِ . .

(١) الغواشي : جمع غاشية ، الغطاء .

(٢) « التلويحات — مرصاد عرشي » ص ١٠٧ .

سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك ، يا من لا يشغله سمعٌ عن سمع .
سبحانك إنك أنت المتجلى بنورك لعبادك في أطباق السموات .

٢ - السهروردي الحكيم الزاهد

في الخبرة القذرة

لا تحدث نفسك ، إن كنتَ امرأً ذا جَدٍّ بأن تتكىء على سريرِ الطبعِ
راضياً برغدِ عيشةٍ في هذه « الخربة القذرة » وتمدّ رجلك فتقول : قد أحطتُ
من العلوم الحقيقية بشطرها ، ولنفسى على حقٍّ ، كيف وقد فزتُ بقصبِ
السبق على أقرانى . إن هذه خطرة ما أفلح من دام عليها قطّ !

انتبه يا مسكين

كلُّ هذه العلومِ صغيرٌ سفيرٌ يستيقظك عن رقدةِ الغافلين ، وما خلقتَ
لتغمسَ في مهلكك ، انتبه يا مسكين ، وانزعج بقوة وارفض أعداء الله فيك ،
واصعدْ إلى آل طاسين^(١) ، لعلك ترى ربك بالمرصاد .

(١) آل طاسين أهل البيت عليهم السلام وكأنه أراد هنا كل من وصل إلى الكمال الأعلى . .
وطاسين هو مبتدأ سورة النمل ، وآل طاسين هى الجواهر العقلية والنفوس الفلكية ، والحروف التى فى
أوائل السور كلها إشارة إلى تلك الجواهر المفردة كأفراد هذه الحروف فإذا تيسر للسالك الصعود إلى
الجواهر العقلية والاتصال بالنفوس الكاملة من أهل بيت النبوة إن قلنا إنهم المرادون بآل طاسين سهل
عليه مشاهدة الواحد الحق إن رام ما هو عليه فتصدق قوله لعلك ترى ربك بالمرصاد والطريق الذى أنت
سالكه ، وهذا الصعود إلى الجواهر العقلية ومشاهدة الواجب لذاته بعين اليقين لا يمكن أن يحصل بالعلم
النظري الذى هو علم اليقين بل لا يحصل إلا بالتجرد التام .

نداء الله

أَتَسْمَعُ مَنَادَى اللَّهِ يَنَادِيكَ وَتَتَصَامَمُ ؟
 قُمْ مِنْ مَرَقَدِ طَبِيعَتِكَ وَاسْتَشْرِقْ . . لَعَلَّ نَفْحَةً مِنَ اللَّهِ تَتَلَقَّاكَ . .
 وَإِذَا عَصَمْتَ فَاصْبِرْ ، وَإِذَا شَرَعْتَ فَتَمِّمْ ، وَإِذَا طَرَحْتَ فَاصْعَدْ ، وَإِذَا
 رَأَيْتَ فَاسْجُدْ ، فَلْعَلَّ بَارئَكَ يَنَاجِيكَ .

قرب الموعد

جُلُّ بِيَدَيْنِ غَابَتْ نَفْسُهُ ، وَاعْتَصَمَ بِكَلِمَةٍ تَقْدَسُكَ ، وَقُلْ لِقَوْمِكَ خَذُوا
 حِذْرَكُمْ وَاتَّقُوا ، فَقَدْ قَرَبَ الْمَوْعِدَ ، فَإِنْ لَمْ تَنْتَهُوا فَإِنَّ عَذَابَ اللَّهِ آتٍ .

درب الأزل

أُمَّا وَالْعَادِيَاتِ (١) لَفَرَطٍ شَوْقٍ دَارَتْ عَلَى أَرْجَاءِ الْكُونَ ، وَنَفُوسٍ قَصْدَنَ
 بِقُوَّةٍ إِلَى ذُرَى الْعَرْشِ — إِنْ إِنْسَانًا لَمْ يَحَارِبْ بَنِي جَنٍّ أَوْ وَا إِلَى قُلَّةٍ طَوْدٍ (٢)
 مَنَعُوا حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَعْزُرَ عَنْ سَكْنَتِهِ إِلَى « دَرَبِ الْأَزْلِ » وَلَنْ يَصِلَ إِلَى
 « سَاحِلِ الْعِزَّةِ » وَلَعَلَّ مُوجًّا هَيَّجَهُ ، الْعَاصِفَاتِ سِرَاعًا تَحْتَطِفُهُ ، فَيَغْرَقُ فِي تَيَّارِ
 الْغَسَقِ ، حَيْثُ لَا عَيْنٌ بَاصِرَةٌ تَطْرِفُ (٣) ، وَلَا قَرِينٌ ذُو وَدٍّ يَسَامِرُ ، فَهَنَّاكَ
 يَلَاقِيهِ مَقْتُ السَّلَاطَةِ (٤) فِي هَيْبَةٍ لَا مَعْبَرَةَ عَنْهَا لِلْعَابِرِينَ .

(١) أُمَّا وَالْعَادِيَاتِ التِّي أَقْسَمَ بِهَا هِيَ الْأَفْلَاكُ ، إِذْ هِيَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ حَوْلَ عَالَمِ الْكُونَ وَالْفَسَادِ .
 (٢) كَأَنَّهُ أَرَادَ « بَنِي جَنٍّ » الْقَوَى الْمُدْرَكَةُ الْبَاطِنَةُ ، وَالطُّودُ هُوَ الْجَبَلُ الْعَظِيمُ فَكَأَنَّهُ شَبَّهَ
 الْإِنْسَانَ بِالْجَبَلِ وَرَأْسَهُ الَّذِي هُوَ أَعْلَاهُ بِقُلَّةِ الْجَبَلِ ، وَالْقَوَى الْمَذْكُورَةُ أَوْتٌ إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ لِأَنَّ مَحَلَّ هَذِهِ
 الْقَوَى الدِّمَاغُ فَكَأَنَّمَا أَوْتٌ إِلَيْهِ .

(٣) طَرَفَتِ الْعَيْنُ : تَحَرَّكَتْ بِالنَّظَرِ .

(٤) سَلَطَ الرَّجُلُ سُلَاطَةً : كَانَ طَوِيلَ اللِّسَانِ حَدِيدَهُ .

كوة الكبرياء

إن سَكِينَةً من رَحْمَةِ اللَّهِ لن تُلْحَقَ إِلَّا نَفْسًا فَارَقَتْ أَطْلَالَ ذَوِي إِفْكَ عَتَوَا ،
ورنت ووقفتْ على رَصْدٍ فرأت طيوراً صافّات ، حاضرات ، واقفات عند « كوة
الكبرياء » فنادت بخفيّ نَدَائِهَا :

يا منجى الهلكى .

ويا غياث من استغاث .

إن ذاتاً هبطت فاغتربت ، وتذكرت فاضطربت فسارعت ففتمت ..
فهل إلى « وصول » من سبيل ؟

شراب الأبرار

لا تحسبن أن السعادة على نوع واحد بل للمقربين من العلماء ، البالغين في
الملكات الشريفة لذات عظيمة ، ولأصحاب اليمين أيضاً لذات دونها سيما على
تقدير وجود المُثُل التخليمية ، فلهم وقفة في العالم الفلكي معها دون الوصول إلى
رتبة السابقين .

« والسابقون أولئك هم المقربون » ، وقد يخالط لذات المتوسطين شوب من
لذات المقربين كما يشير إليه حيث قال تبارك وتعالى في شراب الأبرار إنه « من
رحيق مختوم » و « مزاجه من تسنيم » ، عينا يشربُ بها المقربون « وهؤلاء لهم
العروج »^(١) إلى مشاهدة الواحد الحق ، مستغرقين فيه ، والأبرار على تقدير

(١) العروج : المرور .

وجودِ المثل التخيلية يتلذذون بأصباغٍ تخيلية فلسكية ، وطيورٍ وحُورٍ عَيْنٍ^(١) ،
 وذهبٍ وفضةٍ وغيرها أحسن مما عندنا وأشرف^(٢) .

التجرد والانقطاع

لا تضيّعُ عمرَكَ ، فإنك لن تجدهُ بعد فواتِهِ ، اصبرْ صبرَ الرّجال ولا تعودْ
 نفسَكَ بأخلاقِ ربّاتِ الحِجال^(٣) .

واعلم أن الحسكاء الكبار ، منذُ كانت الحكمةُ خطائيةً في الزمان السابق مثلُ
 والدِ الحسكاء أب^(٤) الآباءِ هرمس وقبله أغاثاذيموس ، وأيضاً مثل فيثاغورس
 وأبا ذا قليس وعظيم الحكمة أفلاطون كانوا أعظم قدراً وأجلّ قدراً من كل مبرز
 في البرهانيات نعرفه من الإسلاميين .

ولا يغرنك استرسالُ هؤلاء مع فيثاغورس ، فإن هؤلاء القوم وإن فصلوا
 ودققوا ما اطلعوا على كثيرٍ من خفيّات سراير الأولين سيما الأنبياء منهم ،
 والاختلافات إنما وقعت في التفاصيل ، وأكثرُ كلامِ القوم على الرّموز
 والتجوزات فليس من الواجبِ الردّ عليهم ، وقد اتفق الكلُّ على ما ينبغي في
 الآخرة من علم الواحدِ الحق ، وما يليه من العقولِ والنفوسِ والمعاد للسّعداء ،
 فعليك بالريضة والانقطاع لهلك تنالُ مما نالوا ، وقد حكى الإلهي أفلاطون على
 نفسه فقال ما معناه « إني ربما خلوتُ بنفسي وخلعتُ بدني جانباً وصرتُ كَأني

(١) الحور : جمع أحور وهو من اشتد بياض عينه بياضاً وسوادها سواداً . والعين : جمع أعين :
 وهو الذي عظم سواد عينه في سعة .

(٢) « التلوينات » ص ٩٤ .

(٣) ربّات الحِجال : النساء .

(٤) الصحيح أن يقال : أبو الآباء .

مجردّ بلا بدن عرى من الملابس الطبيعية ، برى عن الهيولى ، فأكون داخلاً في ذاتى ، خارجاً عن سائر الأشياء فأرى فى نفسى من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن العجيبة الأنيقة ما أبقى متعجباً فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف « فى كلام طويل .

وحكى العلم الأول عن نفسه هذه الأنوار العظيمة وقد اتفق كلهم على أن من قدر على خلع جسده ورفض حواسه صعد إلى العالم الأعلى وغيره من أصحاب المعارج ، ولا يكون الإنسان من الحكماء ما لم يحصل له ملكة خلع البدن والترقى ، فلا ينتفت إلى هؤلاء المنسوبة بالفلاسفة المخبطين الماديين ، فإن الأمر أعظم مما قالوا ، وطرائق هؤلاء معاً خفية لشرفها وعظمتها ومنها ظاهرة .^(١)

عظّات ورعشات

... ظنّ — وفّقك الله — بالعلماء خيراً ، وكن كثير الدّعاء فى أمر آخرتك ، فإنّ الدّعاء ، نسبته إلى استجلاب المطالب ، كنسبة الفكر إلى استدعاء المطالب العلمى ، فكلّ معدّ لما يناسبه ، والدّعاء ، كما قال أفلاطون ، يُحرّك الذّكر الحكيم .

واصبر وتوكل واشكر ، وارضى بالقضاء ، وحاسب نفسك فى كل عشيّة وصبيحة .

وليكن يومك خيراً من أمسك ولو بقليل وإلا فأنت من الخاسرين .
روح سرّك بترك ما ثقلت عليك تبعاته .
اذكر موتك وقدمك على الله فى كل يوم مراراً .

احفظ الناموسَ ليحفظَكَ ، ولا تؤخِّرْ إلى غدٍ شُغلَ يومِكَ ، فإن كلَّ يومٍ
آتٍ بِمِشَاغِلِهِ وإِعْلَاكَ لَنْ تُلْحِقَهُ .

اقطعْ بِحَسَبِ طَاقَتِكَ ، مَحَبَّةَ مَا سِوَى رَبِّكَ .

وكلُّ خَاطِرٍ رَدِيءٍ يَجْرُكُ إِلَى الْجَنْبَةِ السَّافِلَةِ فَاقْطَعَهُ أَوْ لَا لَثَلَا يَقْوَى فَيَقْطَعَكَ .
وَحَصِّلْ لِنَفْسِكَ الْمَلَكَاتِ الْفَاضِلَةَ التَّامَةَ .

وَعَلَيْكَ بِالصَّدْقِ ، فَلَا تَلَطِّخَنَّ نَفْسَكَ بِمَلَكَةِ الْكَذِبِ فَيَنْفَسِدَ مَنَامَاتُكَ
وَالْإِهَامَاتُكَ وَتَعْتَادَ بِالْإِنْتِقَاشِ بغيرِ الْحَقِّ .

وَلَا تَظْلَمَنَّ أَحَدًا فَيَنْتَقِمَ عَنْكَ قِيمٌ ^(١) الْعَالَمِ .

وَلَا تُؤْذِنَنَّ غَلَةً فَإِنَّ عَنَايَةَ الْقِيَمِ كَمَا نَالَتْكَ بِرَحْمَتِهِ نَالَتْهَا .

فَكَرَّرْ مُرَارًا ثُمَّ قُلْ . . . فَإِنْ كُنْتَ بِنَاطِقِكَ صَايِرًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَيُوشِكُ أَنْ
تَصِيرَ بِالصَّمْتِ مَلَكًا مِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

احفظ جانبَ اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ .

وَلِيَكُنْ لَكَ مَعَ اللَّهِ مَعَامِلَةٌ لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهَا بَنُو نَوْعِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ عِيُونًا مِنَ الْمَلَكَاتِ نَازِرَةً إِلَيْكَ فَعِظْهُمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ اسْتَحْيَاءً فَإِنْ
أَعْيَنَ رَبُّكَ لَا تَنَامَ .

احْتِزْ عَنِ الْيَمِينِ ^(٢) وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا .

كُنْ بَرًّا بِوَالِدَيْكَ إِذَا حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى قَوْمٍ فَفَسَقُوا وَالْقِيَمَ عَلَيْهِمْ
غَضَبَانُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَى حَدِّ اسْتِزْالِ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا ، فَلَا تَكُونَنَّ بِصَغِيرَتِكَ
مُتَمِّمَ الْكِبَارِ فَيَنْبِذَ يَمْسُكَ مِنَ الْخِذْلَانِ مَا مَسَّ الْقُرُونِ الْخَالِيَةَ .

(١) الْقِيَمِ عَلَى الْأَمْرِ : مَثْوِيهِ .

(٢) الْيَمِينِ : الْقِسْمِ .

كن ذا عزيمة ، فإن عزائم الرّجال تُحرّك الأسباب .
 اتق دعوة العجائز واليتامى فإن القيم قد لا يسامح بكسر على كبير .
 صلّ لرّبك والليل داج^(١) واذكر الله كثيراً^(٢) .

٣ - السهروردي الفيلسوف

الشوق إلى السرايق القدسي

أشدّ مبهج بذاته هو الحقّ الأول ، لأنه أشدّ إدراكاً وأعظم مدرك
 لأجل مدرك .

له البهاء الأعظم والجلال الأرفع .
 وهو الخير المحض والنور والجمال .

وكأن كل شيء ما يجب أن يكون له ، فما ظنك بشيء يجب له الوجود لذاته؟
 وكل شيء وجوده به وكأنه منه ، وهو نفس ما يجب في الوجود لذاته .

والعشق : هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما .

والشوق : هو الحركة إلى تميم كمال ما عقلي أو ظني أو غيرهما . وكل
 مشتاق فقد نال شيئاً وفاته شيء ، فالأول عاشق لذاته فحسب ، ومعشوق لذاته
 وغيره وهو مقدس عن الشوق ، وبعد لذته وإدراك إدراك الجواهر العقلية
 المبتهجة به وبذواتهم من حيث هم مبهجون به ، ولا ينسب إليهم شوق لأنهم
 بالفعل ، وبعدهم النفوس الفلسفية الحركة شوقاً وعشقاً ، ووراءها النفوس البشرية
 منها أولات المعارج من المقرّبين ودونها السعداء من أصحاب اليمين على مراتب ،

(١) دجا الليل : أظلم .

(٢) « التلويحات » ص ١١٩ .

فكلُّ لذةٍ هي بإدراكٍ وحياةٍ فما ظنُّك بذواتٍ نفسها حياة وإدراك وعلم ؟
 ودونها طائفة انتكست وبقيت في كربِ الهيمولى وغصة وعذاب مغولة ،
 مقيدة بسلاسلِ علايقِ الهيمولى يلذعها عقاربُ الهيئات السيئة « خالدين فيها
 ما دامت السموات والأرض » وكانت قد ناداها المنادى الحق فتغافلت وغوت
 فحلَّ عليها غضبُ الحق فهوتُ فهؤلاء هم الأشقياء ، وسلبت قواهم فصاروا في
 ظلمِ الهيمولى « صم بكم عمى » وقد قيل « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة
 ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : ربِّ لمَ حشرتنى أعمى وقد كنت
 بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » ومن أعظم آلامهم
 « أنهم عن ربهم يومئذ لحجوبون » وقد « ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »
 وأحاطت بهم خطيئاتهم فهم « فى الدَّرَكِ ^(١) الأسفل من النار » متقاعدون .

ثم السعداء قد فازوا بنعيمِ الأبد والسرور الدائم فى حضرةِ جلال رب العالمين
 « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » غير مخرجين عن لذاتهم لهم « فيها ما تشتهي
 الأنفس وتلذ الأعين » جرد عن عوارض الهيمولى مرد عن مزاحمة القوى ،
 مكحلين بالأنوار الشارقة ، ينظرون إلى ربهم بوجوههم المفارقة ، والنفس حينئذ
 كلها وجهٌ وعَيْنٌ ، فى جنَّةٍ بنيت من خضرة زبرجد الحياة ، حصارها وحجرها
 دررٌ ويواقيت حية من أرواح طاهرة ، عيونها إدراكٌ وتعقلٌ ، وقصورها مراتب ،
 ولكلِّ درجاتٍ مما عملوا انخرفت شواغلُ الهيمولى فارتفعت الحُجُبُ ، فهم فى
 حضرةِ ربهم إخوان ، على سُرُرٍ ^(٢) درجاتِ الجلال متقابلين ، لهم السياحة
 الحتمية فى بحرِ النور ، والطيرانُ الحتميق فى فضاء الملكوت لا يتجدد عليهم

(١) الدرك : الانحدار . والدرج : للصعود .

(٢) سرر : جمع سرير ، التخت .

حالٌ ولا يغير، ولا يمتسهم فيها لغوب^(١) في ظل «سدرة المنتهى»^(٢) التي عندها جنةُ المأوى إذ السدرَةُ غاشية لما يغشى . وقد رتعت هذه النفوسُ في رياض الأفقِ الأعلى مبتهجة ربَّ دعاها إلى ذاته فأوى ، وقد انجذب إليه ذواتُ آخرون انجذابَ إبرة حديد إلى عوالم غير متناهية من مغناطيس ، باقية متعلقة بجلال اللاهوت ، فانية عن النظرِ إلى ذواتها ، عرقت في بحر بهائه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عجل رحمك الله ، بسيرٍ حثيثٍ لتلحق سعادة لا يفي بذكرها مقال ، ولا يرتقي إليها بالتصورِ وهمٌ وخيال ، فتبرز إلى ربك وترى « السموات مطويات بيمينه » وبرزوا لله الواحد القهار ، هنالك الولاية لله الحق .

فسلامٌ على نفسٍ قربت من مبدئها بقطعِ علائقِ الناسوت .

سلامٌ على ذاتٍ هبت عليها روحُ الملكوت .

واشوقاه إلى السُّرادقِ القدسي .

واأسفاه على العالمِ العقلي^(٣) .

طريق العروج إلى الجناب الأعلى

الصوفية والمجربون من الإسلاميين سلكوا طريق أهل الحكمة ووصلوا إلى ينبوع النور ، وكان لهم ما كان « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »

ومن طريق المريدين العبادة الدائمة ، مع قراءة الوحي الإلهي والمواظبة على الصلوات في جنب^(٤) الليل والناسُ نيام ، والصوم . . . وأحسنه ما يؤخر فيه

(١) اللغوب : التعب والإعياء .

(٢) سدرة المنتهى : شجرة عن يمين العرش .

(٣) « التلويحات » ص ٩١ - ٩٤ .

(٤) الجنب : الكنف والتأحية .

الإفطارُ إلى السَّحَرِ لتتَمَّ العبادَةُ في الليلِ على الجوعِ ، وقراءة آياتِ في الليلِ مهيَّجة لِرَقَّةٍ وشوقٍ ، وتنفعهم الأفكارُ اللطيفةُ والتخيلاتُ المناسبةُ للأمرِ القدسي ليتلطفَ سِرُّهم ، وهذا له مدخلٌ عظيم . وكذا الغلبةُ اللطيفةُ ، والنعمةُ الرخيمةُ ^(١) والوعظُ عن قائلٍ زكيٍّ . . .

فأولُ ما يبتدئُ عليهم أنوارُ خاطفةٍ لذيذة سمَّوها « الطوالع واللوايح » ، وهي كلمة بارق سريعة الانطواء . ثم يُمنعون في الرياضة إلى أن يكثرَ عليهم ورودُها لملكة ^(٢) متمكنة ، وقد يخرجُ عن اختيارهم هجومُها . ثم بعد ذلك يثبتُ الخاطفُ ، وعند ثباته يسمَّى « السكينة » ، وعند التوغل في الرياضة تصيرُ « ملكة » ، ثم بعد ذلك يحصلُ لهم « قوة عروج إلى الجنب الأعلى » ، وما دامت النفسُ متهتجة بالذاتِ من حيثُ هي الذاتُ فهي بعدُ غيرُ واصله ، وإذا غابت عن شعورها بذاتها ، وشعورها بلذاتها فذلك الذي سمَّوه « الفناء » . وإذا فنيت عن الشعور فهي باقية ببقاء الحق تعالى ^(٣) .

بقاء النفس

. . . والنفسُ باقيةٌ بعد البدنِ ، ومن أقرب ما يُحتجُّ به : أن النفسُ جوهرٌ غيرُ منطبعٍ ، مباين عن البدنِ ، وعلته الفياضةُ باقية ، وليس له مع البدنِ إلا علاقةٌ شوقية ، والعلاقةُ إضافية ، ومن أضعف الأعراض — الإضافة ، فإذا بطل البدنُ تمقطعُ تلك العلاقة . فلو بطلت النفسُ ببطلانِ الإضافة لكان الجوهرُ

(١) الرخيمة : الرقيقة اللينة . (٢) الملكة : صفة راسخة في النفس .

(٣) « التلويحات » ص ١١٣ .

يَتَقَوَّمُ وجودُهُ بأضعفِ الأعراضِ التي هي الإضافة ، وهو محال .
ثم النفسُ إذا كان المعطى لوجودِها باقياً ، وليس لها مكان ومحلّ ليكون لها
مضادٌّ ومزاحم يُبطلها بضربٍ من تضادٍّ . والجوهر المباین ^(١) الذي ليس بعلةٍ
فاعليةٍ مطلقةٍ للشيء تفيض وجوده — لا يلزم من بطلانه بطلان جوهر آخر ^(٢) .
فالنفسُ باقية .

ومما يُحتجُّ به أن كلَّ شيءٍ يبطلُ فلا بدَّ وأن يكون له قوَّةٌ بطلان . ولا
يكون قوة بطلان الشيء البسيط فيه ، فإنه بالفعل من جهة ذاته . ولا يُتصور أن
يكون شيء واحد هو فعلاً في ذاته وهو القوة . فإن قوَّةَ بطلانه يجب أن يكون
في قابلٍ له فيه قوَّةٌ وجوده وقوَّةُ عَدَمه ، كما للصورة والأعراض في حواملها .
والنفسُ لما كانت مجردةً لا قابلَ لها ، وهي وحدانيَّةٌ ، وبالفعل من قبل ذاتها
فلا يُتصور أن يكون لها قوَّةٌ بطلانٍ أصلاً ، لا في ذاتها ولا في غيرها ، فلا تنعدم
أصلاً ، وهذا بعينه يتوجَّه في كلِّ بسيطٍ لا قابلَ له ، كالهيولى والعقل .

وههنا شكٌّ وهو ما قيل : أليست المفارقاتُ ممكنةٌ الوجودِ ؟ وكل ممكن
الوجود ممكن العدم . فلها قوة وجودٍ وعدم . وقد قلتم إن البسيط الذي لا قابلَ
له ليس له قوة وجودٍ وعدم . وأجاب بعض المتأخرين فقال : إن العقول الفعَّالة
إنما إمكاناتها بالقياس إلى وجوداتها ، بمعنى أنه متى عدمت العلةُ عدمت هي
بخلاف ما نحن فيه ، فإن ما نحن فيه هو ما يمكن أن ينعدم مع بقاء علته ، وإنما
يكون ذلك بفسادٍ يعرض في جوهره .

(١) أى المباین للنفس .

(٢) أى بطلان النفس .

الذات الحسية والذات الحيوانية

اعلم أن الذات الحسية الظاهرة تغلبها الذات الحيوانية الباطنة ، حتى إن مُحِبَّ الشَّطْرَنْجِ وغيره من اللَّعِبِ قد يختاره على طيِّباتِ المطاعم ، والإنسانُ يُلْتَذُّ بِمَحَافِظَةِ حَشْمَتِهِ على وجهٍ يَخْتَارُ تَرْكَ كَثِيرٍ مِنَ الذَّاتِ على تَرْكِهَا ، ولا يَخْصُّ نَحْوَ هَذَا بِالْإِنْسَانِ بَلْ وَعُجْمُ الْحَيَوَانَاتِ كَذَلِكَ ، حتى إن المَرْضِعَةَ تَخْتَارُ مَا وَلَدَتْهَا على نَفْسِهَا ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ هَكَذَا فَكَيْفَ الذَّاتُ الْعَقْلِيَّةُ ! وَالْعَوَامُّ غَافِلُونَ عَنْ أَنَّ الذَّاتِ الْمَلَأُكَّةَ وَتَنْعُمُهَا بِشُهُودِ جَلَالِ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ لَذَاتِ الْبَهَائِمِ الَّتِي شَارَكْتَنَا فِي وَقَاعٍ وَغِذَاءٍ . وَاللَّذَّةُ : هِيَ إِدْرَاكُ مَا وَصَلَ مِنْ كَمَالِ الْمَدْرَكِ وَخِيَرِهِ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَلِكَ ، وَإِنْ شَتَّتْ قَيَّدَتْ بِقَوْلِكَ - وَلَا شَاغَلَ وَلَا مَضَادَّ ، وَالْأَلَمُ : إِدْرَاكُ مَا وَصَلَ مِنْ آفَةٍ الْمَدْرَكِ وَشَرِّهِ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَلِكَ ، وَإِنْ شَتَّتْ قَيَّدَتْ بِمَا سَبَقَ ، وَلِكُلِّ مَن قَوَاكِ الْمَدْرَكَةِ كَمَالٌ وَشَرٌّ ، وَكَذَا لَذَّةٌ وَأَلَمٌ بِاعْتِبَارِهَا ، وَاللَّذَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِوَصُولِ لِسْكَالٍ خَيْرِيٍّ وَإِدْرَاكِهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَلِكَ ، وَيُظَنُّ أَنَّ مِنْ الْكَمَالَاتِ مَا لَا يُلْتَذُّ بِهِ عِنْدَ الْوَصُولِ مِثْلَ الصَّحَّةِ وَلَيْسَ كَذَا ، فَإِنَّا شَرَطْنَا وَصُولًا وَإِدْرَاكًَا ، وَالْمَحْسُوسَاتُ عِنْدَ الْاسْتِقْرَارِ قَدْ لَا تَدْرِكُ ، عَلَى أَنَّ الْمَرِيضَ عِنْدَ الْأُوبَةِ^(١) إِلَى صِحَّتِهِ عَاجِلًا يُلْتَذُّ عَظِيمًا ، وَاللَّذِيذُ قَدْ يَصِلُ دُونَ اللَّذَّةِ كَمَا لِلْمَرِيضِ الْمُبْغِضِ لِلطَّعَامِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِكَمَالٍ فِي حَالَتِهِ تِلْكَ أَوْ لِعَدَمِ الشُّعُورِ مِنْ حَيْثُ هُوَ كَذَا وَلَآنَهُ يَشْتَرِطُ فِي الشُّعُورِ السَّلَامَةُ حَتَّى لَا يَكُونَ كَهَلِيلِ الْمَعِدَةِ الْمُبْغِضِ لِلطَّعَامِ وَالْفَرَاغُ حَتَّى لَا يَكُونَ كَالْمَتْلَى شَدِيدًا إِذَا لَمْ يُلْتَذَّ بِمَا يَحْضُرُهُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَالسَّبَبُ الْمُؤَلَّمُ قَدْ يَصِلُ وَلَا يَحْصُلُ

الألم لعدم الشعور ، إمّا بناءً على عدم السلامة كمن سقطت قواه عند الموت أو على مانع كالخدر والسكر ، فإذا استوت القوة عَظُمَ الألم ، ومن لم يؤت ذوقاً قد لا يشقّاق إلى الكمال ... ، ومن لم يكن له مقاساةٌ قد لا يبالغ في احتراز كالمقصر في الحمية لغفلته عن ألم الأمراض .

واعلم أن الذى هو عند الشهوة خيرٌ وكالٌ هو مثل تكيف العضو الذى له قوة الذوق بكيفية الحلاوة كانت مأخوذةً عن مادة أو لم تكن ، وكذلك اللمس والشم وغيرها ، وكال قوة الغضب تكيف النفس بالغلبة أو شعور بأذى عدو أو انتقام فلعل قوة على حسب كمالها لذة ، وكال الجوهر المدرك أن يصير عالماً عقلياً ينتقش بجميع الوجود من لدن مسبب الأسباب الحق الأول آتياً على العقول والنفوس والأجرام فما تحتها ، على النظام الذى له والمعاد إدراكاً مع ملكة حقيقية ، والعقل لا يقاسُ لذته إلى اللذات البهيمية التى سلفت الإشارة إليها لأنها أشرفُ المشاعر وإدراكها أقوى فإنها لا تقتصر على السطوح والظواهر كالخواس بل هى مستظهرة البواطن .

وألزم : فإنها لا تنفسد بخلاف الخواس ، وأكثر إذ مدركتها لا تتناهى بخلاف ما للخواس .

وأشرفُ : فإن مدركتها الحق الأول وما يليه من الذوات القدسية فنسبة لذاتها إلى لذات سائر القوى نسبة المدرك والمدرك والإدراك إلى المدرك والمدرك والإدراك ، والحسيات إدراكها مشوب^(١) ، والعقل هو المدرك الخالص الصافي ، ولا يكذب أصلاً ، والاعتقادات السيئة إنما هى لغلبة وهم ونحوه ، وأما كمال النفس من جهة علاقة المادة فإن يحصل لها الهيئة الاستعلائية على البدن ولا تنفعل عن

(١) مشوب : ممزوج غير صاف .

قواه ، ويحصل لها العدالةُ وهي عفةٌ وشجاعةٌ وحكمةٌ ، وهي ملكةٌ توسط القوة الشهوانية والغضبية واستعمال القوة العملية فيما يدبر به الحياة وما لا يدبر ، وكالها بالجملة التشبُّه بالمبادئ بحسب الطاقة حتى تتجرَّد عن المادة من جميع الوجوه منتقشةً بهيئة الوجود ، وإذا لم تشتق النفس إلى كمالها أو لم تتلذَّذ فإن ذلك لعوائقٌ بدنيَّة ، وهذه الهيئات والملكاتُ الردية إذا تمكنت بعد المفارقة كانت النفس بعدها ككونها قبلها ، إلا أنها زال عنها ما نعُّ الألم فتتألم ، وليست منطبعة بل لها علاقةٌ شوقية إذا لم يحصل لها ملكة الاتصال بالعقل الفعَّال ، وقد حيل بينها وبين ما تشتهى فتتألم بجهلها المركب ، والجهلُ المركب هو عدمُ العلم بالحق مع اعتقاد نقيضه « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلَّ سبيلاً » ، فتبقى مقهورة مخدولة ما لها من شفيعٍ ولا حميمٍ في نارٍ روحانيةٍ أشدَّ من نارٍ جسمانية ، والجهلُ المركب هو الذي لا يرجى فيه النجاة بل يتأبد ، وما كان بسبب عوارض فيزول ولا يدوم .

النفس المتجددة

إن في عالم النفوس تجدُّداتٍ وإن لم تكن إلا بتلاحقِ نفوسٍ مفارقةٍ لكفى في التجدد . فكل نفسٍ طاهرة تتصلُّ بنوعها تتلذَّذ بالمفارقات وتلذَّذت هي أيضاً بها فتعاكست الأنوار من كلِّ على الآخر ، والأنفس الخبيثة المتلطفخة تتألم بالاتصال « كلما دخلت أمة لعنت أختها » .

والبله^(١) والصلحاء والزُّهادُ لكلِّ سعادةٌ بحسبه ، وأما ما يقال إنه يكون في الهواء جِرمٌ مركَّبٌ من بخارٍ ودخانٍ موضوعاً لتخيلات بعض نفوس البله

(١) البله : جمع أبله .

لتحصل لهم سعادة وهمية ، وكذلك لبعض الأشقياء ^(١) شقاوة وهمية لا أصل له ،
 إذ ما هو في الهواء لا يبقى فيه اعتدال ، وإن قُرِبَ من النار فتحيله بسرعة
 إلى جوهرها ، وإن كان دونه في الهواء فإما أن يتحللَ بجرٍّ أو يتكاثف فينزل
 ببرد ، وليس فيه جِرمٌ محيطٌ يغلبُ عليه اليَبَسُ ليحفظه عن التبدُّد ويمنع
 غيره عن مَمازجَتِهِ ، ويتعيَّن فيه محل التخيّل مشكلاً به ولا بد من جوهرٍ
 يابسٍ ينحفظ فيه الصور ، ورطبٍ لتقبل ، وأما ما قاله بعض العلماء من كون
 جِرمٍ سماويٍّ موضوعاً لتخيّلاتِ طوائف من السُّعداء والأشقياء لأنهم لم
 يتصور لهم العالم العقلي ولم ينقطع عَلاقَتهم عن الأجرام وهم بعدُ على القوة التي
 باعتبارها احتاجت النفسُ إلى عَلاقة البدن فكلّامٌ حَسَنٌ ، أما السعداء
 فيتخيّلون مُثلاً وصوراً عجيبية أنيقة ويتلذذون بها ، وكذا جميع ما يلتذُّ به عندنا ،
 وتلك الصور أشرف مما في مدركات هذه الأجرام ، إذ لا يشوبها هذه
 الكدورات ، وأبقى وأبعد عن كلال وملال لقوة فهي ألدّ ، ولكن لا ينقطعُ
 عَلاقَتها بعد وجودها إذ لا فساد في الجرم السماوي .

طريق النجاة إلى الروح الأكبر

إنما يلزم إذا كان لكلٍّ واحدٍ جِرمٌ آخر هو محلُّ تخيله ، وإذا فهمت
 ما سلف في العلم الحضورى لا تستبعد أن يكون لكثيرٍ من النفوس جِرمٌ واحدٌ
 يشاهدُ كلُّ منها فيه الصورَ وليس لها تحريك ذلك الجرم لتتناعَ باختلاف
 إرادات ، ويجوز أن يكون هذه الأجرام متفاوتةً في الشرف ، وتحصل العَلايق
 معها على قدر الدَرَجات ، ولا يبعد أن يكون إليه الإشارة بقول القائل : إن الجنة

(١) الأشقياء : التاعسون .

فى السماء الرابعة وقد قيل إنها جنة « عرضها كعرض السماء والأرض » ولهم فيها ما يشتهون ومملك كبير ، ولا يبعد أن يكون لهم اطلاع على أحوال هذا العالم أيضاً بمثل ما سئذ كر للنفوس الفلكية ، وأما الأشقياء فلا يكون علاقتهم مع هذه الأجرام الشريفة ذوات النفوس النورانية والقوة تحوهم إلى التخيل الجرمى ، فليس بمتنع أن يكون تحت فلك القمر وفوق كرة النار جرم كرى غير منخرق هو نوع نفسه ويكون برزخاً^(١) بين العالم الأثيرى والعنصرى موضوعاً لتخيلاتهم فيتخيلون به من أعمالهم السيئة مثلاً من نيران وحيات تلسع وعقارب تلذع وزقوم^(٢) يشرب وغير ذلك ، وبهذا يندفع ما بقى من شبه أهل التناسخ ، ولست أشك لما اشتغلت به من الرياضيات أن الجهال والفجرة لو تجردوا عن قوة جرمية مذكرة لأحوالهم مستقبلية لمساكنهم وجهالاتهم مخصصة لتصوراتهم نجوا إلى الروح الأكبر^(٣).

رده على أبى البركات المتفلسف

فى سبب انطماس الحكمة

وممن يشرع فى ما لا يعنيه من المتأخرين ويريد أن يذب^(٤) عن مذاهب لا يعرفها ولا يحيط بحجج أهلها إنسان^(٥) يسمى بأبى البركات المتفلسف ، أثبت على « واجب الوجود » إرادات متجددة^(٥) غير متناهية ، سابقة ولا حقة ،

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين .

(٢) الزقوم : شجرة فى جهنم . وطعام أهل النار .

(٣) « التلويحات » ص ٨٦ - ٩٠

(٤) يذب : يدفع ويحاجى .

(٥) إرادات متجددة : إشارة إلى قسم الإلهيات من كتاب « المعتبر » لأبى البركات وخصوصاً الفصل السابع والفصل التاسع من المقالة الأولى والفصل الخامس من المقالة الثانية .

وزعم أنه يفعل شيئاً ثم يريدُ بعده شيئاً آخر ، فيفعلُ ويريدُ ، ثم يريدُ فيفعل
وله إرادةٌ ثابتةٌ أزلية^(١) وإراداتٌ متجددةٌ لا تتناهى . وخالف في هذا البرهان
وخالف من الناس كلٌّ من له في النظرِ أقلُّ رتبةً ، وخالف مذهبَ اليهودية
أيضاً الذي كان يراه والإسلامية التي انتقل إليها ، « فلا عقل ولا قرآن » كما يقال
إلا أنه ظنُّ أن هذه المللَ ربما تقتضى هذراً ، وتوهم أن هذه الشرايع أوجبت
إراداتٍ حادثهً غيرَ متناهية في ذات الباري . وهذا ما قاله^(٢) أحدُ من أهل هذه
الملل أصلاً ، فإن الذي يجتمعون^(٣) عليه أهل هذه الملل أن العالم إنما عُرف حدوثه
لوجوب تناهي الحوادث ، فكيف يجوزون حوادثَ غيرَ متناهية في ذات الباري
فيلزم منه حدوث الباري ؟ كما لزم حدوث العالم عندهم . ثم إن كان ينتسب إلى
العلوم الحكيمة فكان يجب عليه أن يطالعها أولاً ويضبط معانيها ، فإنه إذا فُرض في
الباري أمورٌ حادثهٌ وهي غيرُ متناهية — مع ما يلزم أن يكون في ذاته جهة
فاعلية وجهة قابلية وبرهن على امتناعهما فيه — يلزم أن يكون له مغيرٌ ومحركٌ إلى
الأشياء . ولا يُتصور أن يثبت فيه حادثٌ زماناً ، فإنه إن كان مُوجبُهُ ذاته
فكان يجب أن يثبت دائماً ، وإن كان مُبطلٌ وجوده أيضاً ذاته فما كان يصحُّ
حصوله . فإذا حدث وثبت ثم بطل فلحدوثه علّةٌ ولبطلانه علّةٌ أخرى حادثه ،
وعلّةُ الحدوث لا تتخلّى عن الحدوث ، وعلّةُ البطلان لا تتخلّى عن البطلان
أيضاً ، ويعود الكلام إلى حدوث العلتين ، فلا بد من علتين مقترنتين أيضاً
بالمعلولين فيجب أن لا ينقطع عن ذاته تجدد الحوادث زماناً أصلاً . وإن فُرض
في ذاته حادثٌ زماناً ، فيجب أن يكون في ذاته حوادثٌ أخرى غير متجددة

(١) الأزلى : القديم الدائم الوجود لا بدء له .

(٢) ما : حرف نفي .

(٣) هكذا جاءت ، والصحيح « يجتمع عليه » وقد يكون أراد تفسير الفاعل .

مع ثباته حتى يؤدي ذلك الثابت إلى البطلان .

فيلزم من ضرورة وجوب التجدد الغير المنصرم أن يكون فيه متجددٌ لا يصح أن ينصرم بوجه ، وقد بينّا أن ما هذا شأنه هو الحركة ، وأن كل حركة ما سوى الوضعية منصرمةٌ لما تبين في باب الحركات فيجب أن يكون له حركةٌ وضعية ، فيكون إله العالمين جسمًا متحركًا على الدور ، وهذا تعطيلٌ وجهلٌ وتجاسر على مُبدع العالمين ، أو يجب أن يقال — المغير له على الدوام أمرٌ متجدد على الدوام فينفعُل عن الأفلاك انفعالاً دائماً وهو من معلولات الأفلاك ومن المتأثرات عنه ، وهو محال لما سبق .

المطردون من باب الله

وإنما تأتّى لمثل هذا الجنون القدير الإتيان بمثل هذه الهذيانات القبيحة لأنه لم يكن للحكمة في الأرض سياسة قائمة ، وفي ما قد مضى من الزمن كان لها سياسة وكان القوم الذين يتكلمون فيها أكثر عناية بهم بالمشاهدات الروحانية والأمر العلوية الرفيعة ، وما كان يتمكن من الكلام فيها والتصرف إلا لمن ظهر تأييده من آثار الأنوار القدسية وتجرد عن محبة الرئاسات الدنيوية .

وسبب انقلاع الحكمة عن الأرض أكثره كان ظهور طائفة من المتفلسفة وتطويلهم في الأقاويل التي اشتغل الناس بها عن الحكمة وقدحهم^(١) في من كان أفضل منهم وأعلم من الأقدمين . وسعى جماعة في قلع العلوم عن بابل وفارس وغيرها من النواحي ، فأصلحوا أشياء حسنة مهمة ، وأفسدوا ما هو أحسن منها لأمر قدره الله سبحانه وتعالى فأصبح المنتسبون إلى الحكمة غافلين عن أسرارها ،

(١) القدح : الدم .

وانقطع النور عنهم . وإذا انقطع النور عن طائفةٍ بالكيفية يزول هيبتهم وسلطانهم ويستذلهم النفوس . أما ترى آثار القدماء وهيبتهم في النفوس وإطلاعهم على عجائب الأشياء — من الطَّلَسَمَاتِ ^(١) ولطائف طرائق السلوك وآثار النفوس وغيرها — بقوة سلوكهم وضعف هؤلاء وعجزهم والصَّغَارِ ^(٢) الذي عليهم واشتغالهم بملأ الدنيا ؟ ومتى يَصْفُو الفكرة لمحِب الدنيا ؟ ومتى يستأهلُ لملوم الخفية وهدايا الملكوت وهو في ظلمات شواغل الدنيا حيران ؟ فهؤلاء طردهم الله من بابه ولا تظن أنه يصل إلى المحل الأعلى إنسانٌ وليس له ملكة شروق الأنوار العلوية . وما وراء هؤلاء إن كانوا أخياراً فمن المتوسطين ، وإلا فمن الأَشْقِيَاء . ولولا جسارة الرجل المذكور وشدة إقدامه في حق البارئ على مثل هذه الأشياء وفي أمهات المسائل على خلاف البرهان ومذهب التوحيد للخاصة والعامة ما قدحنا فيه هذا القَدَح ، فإن المُباحث بعد أن كان بشرياً ليس بعجب منه الخطأ ، وأما رفضُ الحق الصريح بالوسواس فلا يعذر عليه .

طالب الحكمة

وأما أنتَ إن أردت أن تكون عالماً إلهياً من دون أن تتعب ، وتداوم على الأمور المقربة إلى القدس فقد حدثتَ نفسك بالمتنع أو شبيه المتنع . والناسُ يجتهدون في طلب باطلٍ غاية الاجتهاد ، وأيضاً رهابين ^(٣) الأمم وزهادهم قد يرتكبون الأمور الشاقة وترك المألوفات لا لغرضٍ شريف بل لمطالب خسيسة .

(١) الطلسم : بتشديد اللام وتخفيفها كتابة يدافع بها السحر المؤذي .

(٢) الصغار : الهوان .

(٣) رهابين : جمع رهبان ، جمع راهب .

فقميحٌ بطالب الحكمة أن لا يجتهد ولا يطلب الطُرُق الموصلة ، فإن طلبت واجتهدت لا تلبث زمانًا طويلًا إلا ويأتيك البارقة النورانية ، وسترتقى إلى السكينة الإلهية الثابتة فما فوقها إن كان لك مرشد ، وإن لم يتيسر لك الارتقاء إلى الملكة الطامسة فلا أقلَّ من ملكة البروق .

فإذا علمت أن فيك نوراً شارقاً لذيذاً فلك أن تعلم أن الأفلاك التي ليس لها شهوةٌ ولا غضبٌ ونزوعٌ حيوانى وشاغلٌ عن الحق — عز جاره — أولى بالذات الروحانية والأنوار الشارقة ، وتعلم أن حركاتها ليست لجرّد تشبّهٍ فى إخراج الأوضاع إلى الفعل من القوة فإنه لو كان كذا ما دام دَوْرانها على قطبين ثابتين فإنه يبقى مع ثبات حركتها على القطبين أوضاعٌ من قبيلِ ثبات القطبين بالقوة أبداً ، بل هى تنال أنواراً لامعةً قدسية ، فتنبعث عنها حركات ، ثم تُعدُّ تلك الحركات لإشراقٍ آخر ، فلا تزال الإشراقاتُ موجبةً للحركات والحركاتُ معدةً للإشراقات كما قيل :

إذا تغيّبتُ بدا وإن بدا غيبتنى

وقد يتفق لك طربٌ يتحرك فيه بدنك ، فإن البدن منفعلٌ عن أحوال النفس والنفسُ منفعةٌ عن أحوال البدن . وتعلم أن البارقات تَرِدُ على النفس وتؤدى إلى حركةٍ فى داخل البدن بل قد تؤدى إلى انزعاجٍ فى البدن ، فلا تتعجب من انبعاث حركاتِ الأفلاك عن أنوارٍ تأنيها من الأفق الأعلى . وأنت إذا ارتقيت إلى مقامٍ أرفع فستتصل بها وما فوقها وتطلعُ على كثير من الأنبياء وتدرِكُ أكثر الحقائق بالرصد الروحانى إذا كان لك مُرشدٌ مُطلعٌ على حقائق

خَفِيَّاتِ الطَّرِيقِ وَالْأَسْرَارِ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَنْتَ فِي الْحِكْمَةِ كَالْأَكْمَهِ ^(١) فِي سِيَاحَةِ الْأَرْضِ !

خميرة الحكمة

وَلِنَفْسِنَا الْإِتْقَاشُ بِعُلُومِهَا لَوْلَا الْعَائِقُ الْبَدَنِي ، وَقَدْ تَطَلَّعُ النُّفُوسُ عَلَى الْأَمْرِ الْغَيْبِيِّ فِي النَّامِ أَوْ فِي الْيَقْظَةِ لِقُوَّةِ نَفْسٍ فُطْرِيَّةٍ ، أَوْ مَكْتَسِبَةٍ بِمِلْكَةِ الْأَنْوَارِ الْعَالِيَةِ أَوْ لَضَعْفٍ طَبِيعِيٍّ فِي الْعَائِقِ كَمَا لِلْمَصْرُوعِينَ وَالْمُرُورِينَ ^(٢) ، أَوْ بِضَرْبٍ مِنْ كَسْبٍ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْتَنْطَقُونَ الْمَشْغُولُونَ لِلصَّبِيَّانِ بِأُمُورٍ مَتَرَقَّةٍ وَأُمُورٍ مَدْهَشَةٍ مُحِيرَةٍ ، وَكُلٌّ مِنْ فِي قَوَاهِ ضَعْفٌ أَوْ قَلَّةُ عِلَاقَةٍ مَعَ رَطُوبَةٍ فِي الدِّمَاغِ قَابِلَةٌ .

وَأَمَّا الْفَضْلَاءُ فَرِيَاضَاتُهُمْ وَعُلُومُهُمْ مَرْمُوزَةٌ ، وَرَبَّمَا تَوَجَّدُ فِي حِكْمَةِ الْإِشْرَاقِ إِنْ كَانَ الطَّالِبُ لَهُ فُطْرَةٌ تَامَةٌ ، أَوْ يُسَاعِدُهُ الْمَطْلَعُ الْمَوْقِفُ ، وَمَا وَرَاءَ الْمُؤَيَّدِينَ أَرْبَابُ الْأَلَاافِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوْقِفٍ ، عَلَى أَنْ لِلْحِكْمَةِ خَمِيرَةٌ مَا انْقَطَعَتْ عَنِ الْعَالَمِ أَبَدًا وَالتَّلَقَّى لِلْأَمْرِ الْغَيْبِيِّ قَدْ يَكُونُ بَقْرَاءَةً مِنْ مَسْطُورٍ ، وَقَدْ يَكُونُ بِسْمَاعٍ صَوْتٍ مِنْ دُونِ أَنْ يُرَى الْمُخَاطَبُ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُخَاطَبَةُ بِصَوْتٍ طَيِّبٍ أَوْ مُبِيبٍ ، وَقَدْ يَكُونُ شَبِيهَ هَمْسٍ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُخَاطَبُ يَتَرَاءَى فِي صُورَةٍ إِمَّا سَمَاوِيَّةٍ أَوْ فِي صُورَةٍ سَادَةٍ مِنَ السَّادَاتِ الْعَالِيَةِ .

مراتب الناس في الدنيا والآخرة

وَاعْلَمْ أَنَّ السَّعَادَةَ أَكْثَرُ مِنَ الشَّقَاوَةِ ، وَأَنَّ مَرَاتِبَ النَّاسِ فِي الْآخِرَةِ كَمَرَاتِبِهِمْ فِي الدُّنْيَا . وَأَنَّ لِلْسَّعَادَاتِ وَالشَّقَاوَاتِ مَرَاتِبَ . وَإِذَا عُلِمَ مَا سَبَقَ

(١) الْأَكْمَهُ : مَنْ اعْتَرَتْهُ ظُلْمَةٌ تَطْمَسُ عَلَيْهِ . وَتَكْه . فِي الْأَرْضِ : ذَهَبَ فِيهَا لَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّه .

(٢) الْمُرُورُ : مَنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْمَرَّةُ وَهَاجَتْ . وَالْمَرَّةُ هُنَا : خَلَطٌ مِنْ أَخْلَاطِ الْبَدَنِ وَهُوَ الْيَصْفَرَاءُ أَوْ السُّودَاءُ .

فلا يتَّجه لِقايلٍ أن يقول : « إن كان الكلُّ بالقدر فلماذا العقاب ؟ » فإنَّ المملكاتِ الرديئةَ والهيئاتِ المبعدة هي بنفسها الموجبةُ للألم لا لسطوةٍ منتقمٍ خارجي .
والمريضُ إذا قصَّرَ في الحِمِّيةِ ^(١) ونالته الأوصابُ ^(٢) ليس ذلك بأن الطبيب المحذِّر انتقم منه ، بل هو ما ساق إليه القَدَرُ من النِّهْمَةِ ^(٣) .

صور ملائكية وصور شيطانية

اعلم أنك ستُعَارِضُ بأعمالِكَ وأقوالِكَ وأفكارِكَ ، وسيظهرُ عليك من كلِّ حركةٍ فعليةٍ أو قوليةٍ أو فكريةٍ صُورٌ جانبيةٌ ، فإن كانت تلك الحركة عقليةً صارت تلك الصورة مادةً لملكٍ تلتلذُّ بمناذمته في دنياك ، وتهتدي بنوره في أخراك ، وإن كانت تلك الحركة شهويةً أو عصبيةً صارت تلك الصورة مادةً لشیطانٍ يؤذيك في حالِ حياتِكَ ، ويحبِّبك عن مُلاقاة النور بعد مماتِكَ .

٤ - السهروردي القاصِّ

رؤيا

عمد السهروردي كذلك إلى القصص ليبين فلسفته ويشرح أصولها فقص في العلم الثالث من كتاب « التلويحات » قصة المنام الذي رأى فيه المعلم الأول وحوارهما عن الذات والنفس وكمال الوجود ومعنى الاتصال والاتحاد والعقل الفعال ، وهي خوالج نفسية تدل على اشتغال عقله الباطن كعقله الواعي في كل ما يصله بالذات العليا . .

قال :

وكنْتُ زماناً شديدَ الاشتغال ، كثيرَ الفكر والرياضة ، وكان يَصْغُبُ عني

(١) الحمية : ما هي من الشيء .

(٢) الأوصاب : الأمراض والأوجاع .

(٣) النهمه : الإفراط في شهوة الأكل .

مسئلة العلم ، وما ذِكِرَ في الكتُب لم يتنقح لي ، فوقعت ليلة من الليالي خلصة في شبه نوم لي ، فإذا أنا بلذة غاشية ، وبرقة لامعة ، ونور شَعْشَعَانِي ^(١) ، مع تمثُلٍ شبحٍ إنساني . فرأيتُه ، فإذا هو غياثُ النفوس وإمامُ الحكمة « المعلم الأول » على هيئةٍ أعجبتني ، وأُبَهَّةٍ ^(٢) أدهشتني ، فتلقاني بالترحيب والتسليم حتى زالت دهشتي ، وتبدلت بالأنس وحشتي . فشكوتُ إليه من صعوبة هذه المسئلة فقال لي : ارجعْ إلى نفسك فتنحلَّ لك .

فقلت : وكيف ؟

فقال : إنك مُدْرِكٌ لنفسِكَ ، فإدراكك لذاتِكَ بذاتِكَ أو غيرها فيكون لك إذن قوةً أخرى ، أو ذاتٌ تدركُ ذاتَكَ ، والكلامُ عايدٌ فظاهر استحالتِه . وإذا أدركتَ ذاتَكَ بذاتِكَ أ باعتبار أثرِ لذاتِكَ في ذاتِكَ ؟

فقلت : بلى . .

قال : فإن لم يطابق الأثر ذاتَكَ فليس صورتها كما أدركتها . .

فقلت : فالأثر صورةٌ ذاتي .

قال : صورتك لنفسٍ مطلقةٍ أو متخصصةٍ بصفاتٍ أخرى ، فاخترت الثاني .

فقال : كلُّ صورةٍ في النفس هي كلية . . وإن تركبت أيضاً من كليات كثيرة فهي لا تمنعُ الشركةَ لنفسها ، وإن فرض منعها تلك فلما منع آخر . . وأنت مدركُ ذاتِكَ ، وهي مانعةٌ للشركةَ بذاتها . فليس هذا الإدراك بالصورة .

فقلت : أدرك مفهوم « أنا » .

فقال : مفهوم « أنا » من حيث مفهوم « أنا » لا يمنعُ وقوعَ الشركة فيه .

(١) الشعشان : الطويل .

(٢) الأبهة والأهبة بتسكين الباء : العظمة .

وقد علمت أن الجزئى من حيث إنه جزئى لا غير كلى . وهذا ، وأنا ، ونحن ، وهو لها معانٍ معقولةٌ كلية من حيث مفهوماتها المجردة . دون إشارة جزئية . .

قللت : فكيف إذن ؟

قال : فلما لم يكن علمك بذاتك بقوة غير ذاتك ، فإنك تعلم أنك أنت المدرك لذاتك لا غير ، ولا بأثر مطابق ، ولا بأثر غير مطابق ، فذاتك هى العقل والعاقل والمعقول .

قللت : زدنى .

قال : ألت تدرك بدنك الذى تنصرف فيه إدراكاً مستمراً لا تغيب عنه ؟

قللت : بلى .

قال : الحصول صورة شخصية فى ذاتك وقد عرفت استحالتها ؟

قلت : لا ، بل على أخذ صفات كليته .

قال : وأنت تحرك بدنك الخاص ، وتعرفه بدنًا خاصًا جزئيًا . وما أخذت من الصورة نفسها لا يمنع وقوع الشركة فيها ، فليس إدراكك لها إدراكاً لبدنك الذى لا يتصور أن يكون مفهومه لغيره . . ثم أما قرأت فى كتبنا : أن النفس تتفكر باستخدام المفكرة ، وهى تفصل وتركب الجزئيات ، وترتب الحدود الوسطى ؟ والمتخيلة لا سبيل لها إلى الكليات ، لأنها جرمية فإن لم يكن للنفس اطلاع على الجزئيات فكيف تتركب مقدماتها ؟ وكيف تنزع الكليات من الجزئيات ؟ وفى أى شئ تستعمل المفكرة ؟ وكيف تأخذ من الخيال ؟ وماذا يفيدها تفصيل المتخيلة ؟ وكيف تستعد بالفكر للعلم بالنتيجة ، ثم المتخيلة جرمية كيف تدرك نفسها والصورة المأخوذة عنها فى النفس كلية ؟ وأنت تعلم متخيلتك ووهمك الشخصيتين الموجودتين ودريت أن الوهم ينكرها .

قلت : فَأَرَشِدْنِي ، جزاك الله ، عن زُمْرَةِ العلم خيراً !

قال : وإذا دريتَ أنها تدركُ لا بأثرٍ مطابق ، ولا بصورةٍ فاعلمُ أن التعقّلَ هو حضورُ الشيء للذاتِ المجرّدة عن المادة ، وإن شئتَ قلتُ عدم غيبته عنها ، وهذا أتمّ ، لأنه يعمّ إدراك الشيء لذاته ولغيره إذ الشيء لا يحضّر لنفسه ، ولكن لا يغيبُ عنها . أما النفسُ فهي مجرّدةٌ غيرُ غائبةٍ عن ذاتها ، فبقدر تجرّدها أدركتُ ذاتها ، وما غاب عنها إذا لم يكن لها استحضار عينه كالسما والأرض ونحوهما فاستحضرت صورته . . أما الجزئياتُ ففي قوى حاضرة لها ، وأما الكلياتُ ففي ذاتها إذ من المدركاتِ كلية لا تنطبعُ في أجرام^(١) . والمدرك هو نفسُ الصورة الحاضرة لا ما خرج عن التصوّر ، وإن قيل للخارج إنه مدرِكٌ فذلك بقصد ثانٍ ، وذاتها غير غايبةٍ عن ذاتها ولا بدنها جملةً ما ولا قوى مدرّكة لبديها جملةً ما . وكما أن الخيالَ غير غايبةٍ عنها فكذلك الصورةُ الخيالية فتدركها النفسُ لحضورها لا لتمثلها في ذات النفس ، ولو كان تجرّدها أكثرَ لكان الإدراكُ لذاتها أكثرَ وأشدّ ، ولو كان تسلّطها على البدن أشدّ كان حضورُ قواها وأجزائها لها أشدّ .

ثم قال لي : اعلمُ أن العلمَ كاللوجودِ من حيثُ مفهومه . ولا يوجب تكثراً فيجب للواجبِ وجوده . وأشار إلى ما ضبطناه في الضابطِ الجامع من قبل . فواجبُ الوجود ذاته مجرّدة عن المادة . وهو الوجودُ البحتُ والأشياء حاضرةٌ له على إضافةٍ مبدئيةٍ تسلّطية ، لأن الكل لازمٌ ذاته ، فلا تغيب عنه ذاته ولا لازم ذاته ، وعدم غيبته عن ذاته ولوازمه مع التجرّدِ عن المادة هو إدراكه كما قررناه في النفس ، ورجع الحاصل في العلم كله إلى عدم غيبة الشيء عن

(١) أجرام : جمع جرم بكسر الجيم ، الجسم من الحيوان وغيره .

المجرد عن المادة صورةً كانت أو غيرها ، والإضافة جائزة في حقه ، وكذلك السلوب ، ولا تخلّ بواحدانيته ، وتكثر أسماؤه لهذه السلوب والإضافات ، ولا يعزبُ عن علمه إذن « مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض » . ولو كان لنا على غير بدننا سلطنة كما على بدننا لأدركناه كيادراك البدن على ما سبق من غير حاجة إلى صورة . فتبين من هذا أنه بكل شيء محيط وأدرك إعداد الوجود ، وذلك هو نفس الحضور له ، والتسلط من غير صورة ومثال . ثم قال لى : كفأك في العلم هذا وأرشدني إلى أمور فرقتُ بعضها في هذا الكتاب^(١) .

فقلت له : ما معنى الاتصال والاتحاد للنفوس بعضها مع بعض وبالعقل الفعّال ؟

قال : أما دمت في عالمكم هذا فأنتم محجوبون ، وإذا فارقتموه كاملين فلكم الاتحاد والاتصال .

فقلت : كنّا ننكر على طوائف من إخوان التجريد والحكماء في إطلاق الاتصال فإنه لا يكون إلا في الأجرام .

فقال : اعلم أنك في ذهنك تعقلُ اتصالاً مطلقاً بين جسمين معقولين مجردين ، وتدرّك أعضاء حيوان واحد معقولة مع اتصال .

فقلت : بلى .

فقال : هل في ذهنك طرفٌ معيّن وامتداد مشخّص ؟

قلت : لا .

قال : إنما هو اتصالٌ عقلي . فالنفوس أيضاً تجد بينها في العالم العلوى اتصالاً

(١) يريد كتاب « التلويحات » .

عقليًّا لاجرميًّا . واتحاداً عقليًّا ستعرفه بعد المفارقة . ثم أخذ يثني على أستاذه أفلاطون الإلهي ثناء تحيرت فيه .

فقلت : هل وصل من فلاسفة الإسلام إليه أحد ؟

فقال : لا ، ولا إلى جزء من ألف جزء من رتبته . ثم كنت أعدُّ جماعةً أعرفهم فما التفت إليهم ورجعت إلى أبي يزيد البسطامي وأبي محمد سهل بن عبد الله التستري وأمثالهما^(١) فكأنه استبشر وقال : أولئك هم الفلاسفة والحكماء حقًّا . ما وقفوا عند العلم الرسمي بل جاوزوا إلى العلم الحضورى ، والاتصالى ، الشهودى ، وما اشتغلوا بعلايق الهوى فلهم « الزلى وحسن مآب » فتحركوا عما تحركنا ونطقوا بما نطقنا ، ثم فارقتى وخلفنى أبكى على فراقه ، فوالهفى على تلك الحالة^(٢) .

(١) فلاسفة الإسلام : كالفارابى وابن سينا وغيرهما وعدم التفاته إليهم فلقلة سلوكهم وكثرة بحوثهم التى لا تتم إلا بالرياضيات والتجرد ، ولم يكن لهم ذلك . وأما أبو يزيد البسطامى وسهل التستري والحلاج وأبو الحسن الجرجانى وذو النون المصرى وأشباههم وإن كانوا قليلي البحث والنظر فى الحكمة النظرية فلهم اليد البيضاء فى الحكمة الكشفية .

(٢) « التلويحات » ص ٧٠ .

أصوات أجنحة جبرائيل

من رسائل السهروردي التي تتميز بالطابع الصوفي والتي توغل في الرمزية رسالته « أصوات أجنحة جبرائيل » وهي رسالة صغيرة كتبها بالفارسية بعنوان « أوز بر جبرائيل » ونقلها إلى العربية المستشرق الشاب بول كراوس ، وهي عبارة عن رؤيا سماوية يدور فيها حوار بينه وبين شيخ حكيم عن نشأة العالم والروح والأفلاك والملائكة ، ويرمز من وراء هذه الرؤيا إلى تصوير العالم السفلي والعالم العلوي . ونقل هنا إلى القارئ الكريم بعض فقرات هذه الرسالة ، وهي بمجموعها تعبير عن شوق السهروردي إلى العالم العلوي ، في صدد دفاعه عن شيوخه وأنداده المتصوفين أصحاب الحقة الزرقاء الذين عافت نفوسهم أوصار الدنيا في سبيل الوصول إلى الحقائق العليا .

قال السهروردي :

حدث في يوم من الأيام ، في محفل ناسٍ قد أصاب بصرهم الرَّمَدُ ، أن رجلاً سخر بمناصب سادات الطريقة وأتمتها ، ولقصر نظره ، تكلم من غير روية في مشايخ السلف . ولأجل تقوية رأيه المنكر ، استهزأ بمصطلحات المتأخرين ، حتى بلغت جسارته أن أورد حكاية عن الأستاذ أبي علي الفارمذي ، رحمه الله قائلاً : إنه سئل لم سمي ذوو الحقة الزرقاء بعض الأصوات — أصوات أجنحة جبرائيل ؟

فأجاب : اعلم أن أكثر الأشياء التي تشاهدُها حواسك تنبعثُ من صوت أجنحة جبرائيل ، وقال للسائل : إنك أنتَ أحدُ أصوات أجنحة جبرائيل ، وقد أبى ذلك الخصمُ المتعسفُ أن يعترف بمثل هذا الكلام قائلاً : ماذا يمكنُ أن يكون معنى هذه الكلمة إلا هذياناً مزخرفاً ؟ ! .. ولما بلغ تجاسره إلى هذا الحد شمرتُ عن ساعد الجدِّ لأزجره بتلك الحدة نفسها في سبيل الحق ، ورفعتُ ذيل المبالاة إلى كتفي ، وطويتُ كُمي تحملي ، واعتمدتُ على رُكبة الفطنة ، وسميته على طريق الشتم بليداً عامياً . . وقلتُ : إنني سأشرح لكم أصوات أجنحة

جبرائيل بعزم مصمم ورأي صائب ، فافهم أنت ، إن كنت رجلاً وكان فيك خلق الرجال ! . . .

بدء القصّة

. . . في يوم ما انطلقت من حجرة النساء ^(١) وتخلّصت من بعض قيود ولغائف الأطفال ^(٢) . كان ذلك في ليلة انجاب فيها الغسق ^(٣) عن قبة الفلك اللاذوردى ، وتبدّدت الظلمة التي هي شقيق العدم ^(٤) على أطراف العالم السفلى . وبعد أن أمسيت في غاية القنوط من هجمات النوم ، أخذت شمعاً في يدي متضجّراً وقصدت إلى رجال قصر أمي ^(٥) ، وطوّفت في ذلك الليل حتى مطلع الفجر ، وعندئذٍ سنح لي هوس دخول دهليز أبي ^(٦) ، وقد كان لذلك الدهليز بابان : أحدهما إلى المدينة ، والآخر إلى الصحراء والبساتين ^(٧) . . . قمت فأغلقت

(١) أى تخلص من أكرار عالم الأجسام ، وهو ينسب الأنوثة إلى هذا العالم بسبب أنه محل الإحساس والشهوات ودار اللذائذ الطبيعية .

(٢) ويقصد بالأطفال الحواس الظاهرة التي تخلص منها .

(٣) الغسق : ظلمة أول الليل .

(٤) يقصد بهذا العدم فناء عالم المحسوسات أمام بصر وفراغ من كان مشغولاً ، لأن عدم الاشتغال

هو من خواص الليل

(٥) معنى هذا التعبير الرمزي غير واضح ، فإذا كانت « الأم » معناها الهيولى ، أى الجسم ، في مقابل الأب أى العقل ، فإن « رجال قصر أمي » يمكن أن يقصد بهم الحواس الباطنة ، ولذلك يجب إذاً أن نعطي لكلمة « النساء » . المذكورة من قبل معنى « الحواس الظاهرة » وأن نفهم « الأطفال » بمعنى العلائق الحية المادية عامة .

(٦) يقصد بالدهليز وجود نفسه ، وبأبيه علة وجود نفسه . وهى العقل . . . ويريد بدخول الدهليز سر باطنه والتفكير في أرجاء نفسه .

(٧) يقصد بهذين البابين : النفس والجسم .

الباب الذى يؤدى إلى المدينة إغلاقاً محكماً ، وبعد رَنتِجِه^(١) قصدتُ إلى الفتق الذى يؤدى إلى الصحراء^(٢) . وعند ما رفعتُ التُّرسَ نظرتُ وإذا عشرةُ شيوخ^(٣) حسان السياء قد اصطَفُوا هناك صفّاً صفّاً . وقد أعجبتنى هيئتهم وجلالتهم وهيبتهم وعظمتهم وسناهم ، وظهرتُ فى حَيْرَةٍ عظيمةٍ من جِلالهم وروعهم وشمائلهم حتى انقطعتُ عنى مُكَنَّةٌ^(٤) نطقى . . وفى وجلٍ عظيم ، وفى غايةٍ من الارتجاف قدّمتُ رِجلاً وأخرتُ أخرى . وعندئذٍ قلتُ لنفسى : شجاعة ! لنكن مستعدين لخدمتهم وليكن ما يكون .

وهنا سأل الشيخ من أين أقبل هؤلاء السادة . . فأجابته أننا جماعة متجردون وصلنا من حيث « أين » لا « أين » .

ولم يفهم مقاله فسأله : فى أى إقليم توجد تلك المدينة . فقال فى إقليم لا تجد السبابة إليه متجهاً . ثم سأله عن حرفته . فقال الحياطة . . وكل واحد منهم يحفظ كلام الرب . . وإنهم سائحون . وبعد أن يذكر مشاهداته ، وهى رموز صوفية ، ويتحدث عن العقل الفعال ، وعن النفس والعناصر الأربعة وأثر الماهية فى تدوير الأفلاك والتناسل والتوالد وغير ذلك من ظواهر الحياة وبواطنها يقول :

عدم الرؤيا لا يعنى عدم الوجود !

قلت للشيخ : لماذا نزلتَ إلى هذه الدار إذا ادعيت على نفسك عدم تحرك؟ قال : ياسليم القلب ! إن الشمس تدور فى فلكها دائماً ، إلا أن المكفوف^(٥) إن كان لا يُدرِكها ، ولا يحسُّ بجَوالِها ، فإن عدمَ إحساسه لا يوجبُ عدمَ وجودها

(١) رتج الباب : أغلقه .

(٢) أى ترك المحسوسات واتجه إلى المعقولات .

(٣) أراد بهم الملائكة المقربين من الله ، وهم الوسائط بين « واجب الوجود » وبين « النفوس

الإنسانية » .

(٤) المكنة : القدرة .

(٥) المكفوف : الضير .

أو سكونها في مكانها . ولو زال ذلك النقصُ عن المكفوفِ فإن لم يسعْ له أن يطالب الشمس قائلاً . لماذا لم تكوني في العالم من قبل . . لماذا لم تباشري دورانك الدائم ؛ لأن دوامَ حركتها ثابت إلى الأبد ، فليس التغيرُ في حال الشمس بل في حال المكفوف .

وكذلك نحن : فإننا دائماً في هذا الصف . وأما عدم رؤيتك إيانا فليس دليلاً على عدم وجودنا ، أو على تغيرنا وانتقالنا عن حالنا : إن التبدل في حالك أنت .

الاستغراق في المشاهدة :

قلت : أتسبحون الله ، عزّ وجلّ ، تسبيحنا ؟

قال : كلا ! إن الاستغراق في المشاهدة يشغلنا عن التسبيح ، وإن كان هناك تسبيح ، فإنه ليس بواسطة الألسن والجوارح ولا بحركة واهتزاز ، وما إليه ^(١) .

علم الخياطة :

قلت : ألا تعلمني علم الخياطة ؟

فتبسّم وقال : يا للأسف ! ليس لأشباهك ولنظرائك قبلاً بهذا ، فإن ذلك العلم غير مُيسّر لنوعك ، وذلك أن خياطتنا لا تتعلقُ بعملية وقصد وآلة ^(٢) . على أني أعلمك من علم الخياطة قدرَ ما يمكنك من تصليح خرقتك الخشنة المرقّعة ^(٣) ، وقد علمني ذلك القدر من العلم .

(١) معنى كل هذه الكلمات أن فيضها وفائدتها بفضلها هي ، وهي جواهر روحانية ، تفيض دائماً على الموجودات المستعدة لها .

(٢) إن الخياطة تشير إلى تركيب الصورة مع الهيولى - المادة .

(٣) يعنى بهذا كشف علم الطب وإصلاح البدن بالمحافظة على اعتدال المزاج .

كلام الله :

ثم قلت : — وهنا يبدأ القسم الثاني من الرؤيا — علمنى الآن كلام الله .
قال : إن المسافة عظيمة ، وما دمت فى هذه القرية ^(١) ، لا يمكنك أن تتعلم
كثيراً من كلام الله تعالى ، ولكننى أعلمك قدر ما أنت ميسر له .

وقد أحضر له لوحاً وعلمه حروف هجاء عجيبة حتى إنه استطاع أن يفهم ، بواسطة ذلك الهجاء ،
معنى كل سورة من سور القرآن الكريم ، وبعد أن أتم دراسته نقشت حروفه على اللوح ^(٢) ، وظهرت
له من عجائب معانى كلام الله ما لا يدخل تحت حصر .. وقد دار حديث حوله نفث الروح فأشار
الشيخ إلى أنه يشتق من روح القدس ، وعند ما سئل عن نسبة ما بينها . أجاب أن كل ما يتحرك فى
أربعة أرباع العالم السفلى يشتق من « أجنحة جبرائيل » ولما باحثه فى كيفية ذلك النظام قال :

كلمات الله الكبرى :

اعلم أن للحق سبحانه وتعالى عدّة كلماتٍ كبرى تنبعث من كلماته النورانية ،
أى من شعاع سماء وجهه الكريم ، وبعضها فوق البعض ^(٣) ، وذلك أنه تنزلُ
من الحق كلمة عليا ليس أعظم منها ، ونسبتها فى قدر نورها وتجليها من سائر
الكلمات مثل نسبة الشمس من سائر الكواكب ^(٤) ، وهذا مراد ماورد فى
الخبر عن الرسول عليه السلام ، إذ قال : لو كان وجه الشمس ظاهراً لكانت
تعبد من دون الله . ومن شعاع تلك الكلمة تنبعث كلمة أخرى ، وعلى

(١) يريد أنه ما دام فى العالم المحسوس فإنه لا يستطيع أن يقف على الكليات وعلى حقائق
العلوم على الجملة .

(٢) يقصد بنقش اللوح انكشاف العلوم والمعارف التى تسمى بالعلم اللدنى .

(٣) يقصد بكلمات العقول ، أى أن جواهر العقول هى أنوار فائضة من لدن واجب الوجود ،
وبعضها فوق بعض درجات بحسب شرفها ورتبتها .

(٤) يقصد بالنور الأول العقل الأول ، يعنى أنه لا توجد بين المخلوقات مرتبة أعلى من مرتبته .

هذا^(١) واحدة بعد الواحدة حتى يكمل عدد تلك الكلمات تامة^(٢) . وآخر تلك الكلمات جبرائيل عليه السلام ، وأن أرواح الآدميين تنبعث من تلك الكلمة الأخيرة ، كما ورد في حديث صحيح عن فطرة آدم : « يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيَنْفَخُ فِي الرُّوحِ » وكذلك قوله تعالى « خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » وقال بعده : « ثم سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ » وكذلك قال عن مريم : « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ومعناه جبرائيل .

روح الله :

وأما عيسى فيسمّونه أيضاً روح الله . ويسمونه مع هذا كلمةً وروحاً كما نصّ عليه : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » .

الآدميون :

أما الآدميون فهم نوع واحد ، ومن له روح فله كلمة ، بل هذان الاسمان لا يشيران عند البشر إلا إلى حقيقة واحدة . ومن آخر الكلمات الكبرى تظهر كلمات صغرى من غير حدّ ، على ما أشير إليه في الكتاب الرباني بقوله : « مانفدت كلمات الله » وقال « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي » — جميعها خلقت من شعاع تلك الكلمة التي هي في مؤخرة طائفة الكلمات الكبرى المذكورة ، كما ورد في التوراة . « خلقت أرواح المشتاقين من نوري » وهذا النور ليس غير روح القدس ، وبهذا المعنى أيضاً ما نقل عن سليمان النبي إذ قال له أحدهم : يا ساحر ! قال لست بساحرٍ إنما أنا كلمة من كلمات الله .

(١) العقل الأول علة العقل الثاني ، والثاني علة الثالث ، حتى يصير عددها كاملاً وهو عشرة ، كقوله تعالى « تلك عشرة كاملة » .

(٢) يعنى أن فيضه ينتشر دائماً على كل الكائنات المستعدة له .

محركو الأفلاك :

وللحق تعالى كلماتٌ وسطى.. أما الكلمات الكبرى فهي التي قيل عنها في الكتاب الإلهي : « فالتسابق سبقاً » ، وأما قوله « فالمدبرات أمراً » فهم الملائكة ومحركو الأفلاك ، وهي الكلمات الوسطى ، وكذلك فإن قوله تعالى : « وإنا لنحن الصافون » إشارة إلى الكلمات الكبرى ، وقوله « وإنا لنحن المسبحون » إشارة إلى الكلمات الوسطى ، ولأجل هذا تقدّمت عبارة : « الصافون » في كل مكان من القرآن المجيد ، إذ قال « والصفات صفّاً ، فالزاجرات زجراً » وفي هذا غور بعيد لا يليق استيعابه بهذا المحل ، وقد تستعمل « الكلمة » في القرآن أيضاً بمعنى السرّ .

جناح جبرائيل :

قلت للحكيم : أخبرني الآن عن جناح جبرائيل ؟

قال : اعلم أن لجبرائيل جناحين : أحدهما عن يمينٍ وهو نورٌ مخض ، وهذا الجناح ينضف مجرّد وجوده إلى الحق تعالى ؛ وأما الجناح الأيسر فتمتد عليه بقعة سوداء كأنها الكلف الذي يظهر في وجه القمر ، أو كأنها تذكّرنا بالألوان التي على قدم الطاووس ، وفي هذا إمكان وجوده الذي جانب منه ينصرف إلى العدم . فإذا نظرت ما لجبرائيل من الوجود بمجود الحق فإنه يوصف بوجوب الوجود ، وإذا نظرت إليه بقدر استحقاق ذاته فإنه يوصف بالعدم ، ومن هذه الجهة يلزم إمكان الوجود . فهذان المعنيان ممثلان في جناحي جبرائيل : الأيمن إضافته إلى

الحق ، والأيسر استحقاقه في ذات نفسه ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : « وجاعل الملائكة رؤسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع » .

كلمة الكافرين :

وللكافرين أيضاً كلمة ، غير أن تلك الكلمة صدى ممزوجٌ بحسب ما عليه أنفسهم ، ومن الجناح الأيسر الذي يمتد عليه قدرٌ من الظلمة يهبط ظلٌّ منه عالم الزور والغرور . كما قال الرسول عليه السلام : « إن الله تعالى خلق الخلق في الظلمة ثم رشَّ عليه من نوره » مما يشيرُ إلى شعاع الجناح الأيسر ، وكذلك ورد في القرآن الكريم : « وجعل الظلمات والنور » فإن تلك « الظلمة » التي نسبت إلى فعل « جعل » ، أصبحت عالم الزور ، وأما ذلك « النور » الذي ورد ذكره بعد « الظلمة » فهو شعاع الجناح الأيمن إذ كان كلُّ شعاعٍ وقع في عالم الغرور من فوره ، وبهذا المعنى قال تعالى : « إليه يصعدُ السَّكِّيمُ الطَّيِّبُ » ، إذ أن الكلمة أيضاً من شعاعه ، وكذلك قوله : « مثلاً : كلمة طيبة » فهي كلمة شريفة نورانية من بين الكلمات الصغرى . وإن لم تكن تلك الكلمة الصغرى في غاية الشرف ، فكيف استطاعت أن تصعد إلى حضرة الحق تعالى ؟ ! وأما أن الكلمة والروح يدلّان على معنى واحدٍ فإن علامة ذلك : « إليه يصعد الكلم الطيب » وكذلك « تعرجُ الملائكة والروح إليه » فإن عبارة « إليه » ترجع في الحالتين إلى الحق جلّت قدرته ، وعلى هذا المعنى تدل أيضاً « النفس المطمئنة » إذ قال : « ارجعي إلى ربك » .

عالم الغرور :

ثم إن عالم الغرور ليس إلا صدى وظلاً لجناح جبرائيل، أعنى لجناحه الأيسر، بينما تصدر الأنفس المضيفة من الجناح الأيمن^(١)، وأما الحقائق التي تلقى في الخواطر والتي شأنها كما قال : « كَتَبَ في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » ، وكذلك النداء القدسي الذي شأنه كما قال : « نادينه أن يا إبراهيم » وغيرها كل ذلك من جناحه الأيمن^(٢)، وأما القهر والصيحة والحوادث الخاصة بعالم الغرور فهي من جناحه الأيسر^(٣).

صورة جناح جبرائيل :

قلت للشيخ : فما هي ، في آخر أمرها — صورةُ جناح جبرائيل ؟
فأجاب : يا عاقل ! كل هذه الأشياء ليست إلا رموزاً ، إن علمتها على ظاهر معناها كانت تخيلاتٍ لا حاصل لها .

قلت : أليست كل هذه الكلمات يجاورها اليوم والليلة ؟
قال : يا عاقل ! ألا تعرفُ أن غاية صعود تلك الكلمات إلى حضرة الحق تعالى كما قال : « إليه يصعد الكلم الطيب » ؟ وفي حضرة الحق تعالى ليس ليل ولا نهار : « ليس عند ربكم صباح ولا مساء » ، أي في جانب الربوبية لا يوجد زمان .

(١) يعني أن عالم الكون والفساد صادر عن صفة إمكانه ، ولهذا فهو قابل للعدم ، أما الأرواح الإنسانية فصادرة عن صفة وجوبه ، ولهذا فإنها غير قابلة للعدم .

(٢) إن جبرائيل ، كما يقول الشارح ، هو الواسطة بين فيض واجب الوجود وبين النفوس الإنسانية ، وينتج من هذا أن إلقاء الحقائق الروحية والنداء القدسي كلاهما من تديره .

(٣) ويقول إن جبرائيل يؤثر في عالم الكون والفساد وهو محل القهر والصيحة « صراخ البؤس » والحوادث ، وعلى هذا فكل شيء صادر عن تأثيره .

قلت : وأين القرية التي قال الحق تعالى عنها : « أخرجنا من هذه القرية
الظالم أهلها » ؟

قال : ذلك هو « عالم الغرور » الذي هو أليق محلٍّ للكلمة الصغرى . ثم إن
الكلمة الصغرى أيضاً قرية لأن الله تعالى قال : « وتلك القرى نقص عليك من
أنبائها وفيها قائمٌ وحصيد » أليس هذا هيكل الكلمة الذي أصبح خراباً ؟ على
أن ما ليس له مكان ، وما خرج عن كليهما فهي كلمات الحق تعالى ، كبيرة كانت
أم صغيرة .

ثم عند ما ارتفع على قصر أبي فجرٍ النهار ، أغلق الباب الخارجى وفتح باب
المدينة ، وذهب التجار إلى أشغالهم ، وتغيّبت عنى جماعة هؤلاء الشيوخ ، وبقيت
في حسرةٍ متشوقاً إلى صحبتهم ، عاضاً أنامله وصارخاً الويل ، ومُظهراً لعظمة
حيرتي ولكن لا فائدة بعد^(١) .

وهنا تنتهى هذه القصة

(١) نشرت ترجمة هذه الرسالة عن الفارسية في المجلة الآسيوية « Journal Asiatique »
عدد يولية - سبتمبر ٩٣٥ ص ١ - ٨٢ كما نشرها الدكتور عبد الرحمن بدوى في نهاية كتابه
« شخصيات قلقة في الإسلام » مع الشروح المنقولة عن الفارسية لشارح مجهول .

حى بن يقظان

كما كتب ابن الطفيل قصة حى بن يقظان، وجاراه فيها ابن سينا فقد ابتدع السهروردي، بخياله الخصب، صورة جديدة لهذه القصة بما يوائم فلسفة الإشراقية. وقد استهلها بالمقدمة الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، محمدٌ وعِترته^(١) الطاهرين .
أما بعدُ فإني لما رأيتُ قصة حى بن يقظان، فصادفتُها — مع ما فيها من عجائب
الكلمات الروحانيّة والإشارات العميقة — معترية^(٢) من تلويحاتٍ تشيرُ إلى
الطَّورِ الأعظمِ الذى هو الطَّامةُ الكبرى، المخزون فى الكتبِ الإلهية،
المستودع فى الرُّموز، الخفى فى قصة حى بن يقظان، فهو الذى يترتبُ عليه
مقاماتُ الصوفية وأصحاب المكاشفات، وما أشير فى رسالة حى بن يقظان إلّا فى
آخر الكتابة حيث قال « ولقد هاجر إليه أفراد من الناس . » إلى آخر الكتاب،
فأردت أن أذكر طوراً فى قصةٍ سميتها أنا قصة الغريبة الغريبة لبعض إخواننا
الكرام وعليه أتوكل وبه أستعين .

ثم مضى يروى القصة فقال :

سافرتُ مع أخى عاصم من ديار ما وراء النهر لنصيد طائفة من طيورٍ ساحل
لجّة الخضراء، فوقعنا بغتةً فى قريةٍ الظالم أهلها، أعنى مدينة قيروان، فلما أحسن
قومها أننا قدمنا عليهم، ونحن من أولادِ الشيخ المشهور بهادى بن أبى الخير
اليماني، أحاطوا بنا وأخذونا وقيدونا بسلاسلٍ وأغلالٍ من حديد، وحبسونا فى

(١) العترة : ولد الرجل وذريته وعشيرته ممن مضى .

(٢) معترية : عارية .

مقعر بُئرٍ لانهائية لمسلكها . وكان فوق البئر المطلة التي عمرت بحضورنا قصرٌ مشيدٌ عليها أبراجٌ عالية ، فقيل لنا لا جناح ^(١) عليكم إن صدتم القصر مجردين إذا أمسيتم ، أما عند الصباح فلا بد من الهوى في غيابة ^(٢) الحب . وكان في قعر البئر ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، إذا أخرج « الإنسان » يده لم يكده يراها . إلا أننا أوبه المساء نرتقى القصرَ مُشرفين على الفضاء ، ناظرين من كوةٍ فر بما يأتينا حماماتٌ من أيوك الين ، مخبرات بحال الحمى . وأحياناً نزرنا برقٌ يمانية ترمض من الجانب الأيمن الشرق وتخبُرنا بطوارق نجد ، تزيدنا بارتياحٍ وجداً على وجد . فنحنُ إلى الوطن ونشتاق . فبينما نحنُ في الصعود ليلاً والهبوط نهاراً إذ رأينا الهدهد مسلماً في ليلة قراء ، في منقاره كتاب ، صدر من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة وقال لي : أنا أحطت بوجه خلاصكما وجئتكما من سبأ بنباييين ، وهو ذا مشروح في رقعة أبيكما . فلما قرأنا الرقعة فإذا فيها مكتوب أنه من الهادي أبيكم ، وأنه بسم الله الرحمن الرحيم كم شوقناكم فلم تستاقوا ، ودعوناكم فلم ترحلوا ، وأشرناكم فلم تفهموا . وأشار في الرقعة إلى بأنك يا فلان ، إن أدرت أن تتخلص مع أخيك فلا تنيا ^(٣) في عزم السفر واعتصم بحبلنا وهو جوهرُ الفلك القدسي المستوى على نواحي الكسوف ، فإذا أتيت وادي النيل ، فانفض ذلك وقل الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، وأهلك أهلَك ^(٤) واقتل امرأتك إنها كانت من الغابرين ، وامض حيث تؤمر فإن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين فاركب في السفينة التي بسم الله مجريها ومُرسيها في

(١) لا جناح : لا لوم .

(٢) غيابة الحب : قعره .

(٣) لا تنيا : لا تتوانيا .

(٤) يريد بالأهل : الشهوات ، وبالمرأة : النفس الشهوانية .

الرقعة جميع ما هو كائن في الطريق . فتقدّم الهدهد وصارت الشمس فوق رؤوسنا إذا وصلنا طرف الظل فركبنا في السفينة وهي تجري بنا في موج كالجبال ، ونحن نزوم الصعود على طورسينا حتى نرمق صومعة أبينا . وحال بيني وبين ولدي الموج فكان من المغرقين . وعرفت أن قومي موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟ وعلمت أن القرية التي كانت تعمل الخبائث ، يجعل عاليها سافلها ، ويمطر عليها حجارة من سجيل^(١) منضود . فلما وصلنا إلى موضع تتلاطم فيه الأمواج ، وتدرّج فيه المياه ، أخذت طيرى^(٢) التي أرضعتني فالقيتها في اليم^(٣) فكنا نسير في جارية^(٤) ذات ألواح ودسر^(٥) وغرقنا السفينة مخافة ملك يأخذ كل سفينة غصبا . والفلك^(٦) المشحون قد مرّ بنا على مدينة يأجوج ومأجوج^(٧) على الجانب الأيسر من الجودي كان معي من الجنّ من يعمل بين يدي وفي عين القطر^(٨) فقلت للجنّ : انفخوا حتى صار مثل النار فجعلته سداً^(٩) حتى انفصلت منهم وتحقق وعد ربّي حقاً . ورأيت في الطريق جماعهم

(١) الحجر المطبوع . وفي الكلام إشارة إلى سورة الفيل : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . »

(٢) الطائر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

(٣) اليم : البحر .

(٤) الجارية : السفينة .

(٥) الدسر : جمع دسار وهو شيء كالليف تشد به ألواح السفينة .

(٦) الفلك : السفينة تذكر وتؤنث .

(٧) يأجوج ومأجوج وقد تخفف الهمزة : اسم قبيلتين قديمتين .

(٨) القطر : النحاس الذائب .

(٩) تضمين لآيات من سورة الكهف منها : « قالوا يا إذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون

في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . »

عاد وشمود وطُفَّتْ في تلك الدِّيارِ وهي خاويةٌ على عروشِها ، وأخذتُ الثَّقَلَيْنِ ^(١) مع الأفلاكِ وجعلتها مع الجن في قارورةٍ صنعتها أنا مستديرة عليها خطوطٌ كأنها دوائرٌ تقطعتُ ، إلا أنها من كبِدِ السماء فلما انقطع الماء عن الرِّحَا ^(٢) انهدم المِبناء وخلص الهواء إلى الهواء وألقيتُ الأفلاكُ على السمواتِ حتى طحن الشمس والقمر والكواكب فتخلَّصت من أربعة عشرَ تابوتاً فألقيتُ سبيلَ الله فتيقظتُ أن هذا صراطي على مستقيماً وأختي وقد أخذتها بياناً فباتت في قِطْعٍ من الليل مظلم وبها جنٌّ وكابوس يتطرقُ إلى صرعٍ شديد . ورأيتُ سراجاً فيها دهنٌ ينتسجُ نوره وينتشر في أقطار البيت وشعلٌ مساكنها من إشراقها نور الشمس عليهم فجعله في فم اثنين ساكن في برجٍ دولابٍ تحته بحرٌ قلزم وفوقه كواكبٌ ما عرَفَ مطلع أشعتها إلا باريها والراسخون في العلم . ورأيتُ الأسدَ والنورَ قد غابا ، والقوس والسرطانَ قد طُويا في طي تدور الفلك وبقي الميزان مسبوقةً فإذا طلع النجمُ اليماني من وراء غيومٍ رقيقة متألِّقة مما نسجته عناكبُ زوايا العالم الصغرى عالم الكون والفساد ، وكان معنا غنم فتركناها في الصحراء فأهلكتهم في الزلزال ووقعت فيها نار صاعقة . فلما انقطعت المسافة وانقرض الطريقُ وفار التنور من الشكل المحروط فرأيتُ الأجرامَ العلوية واتصلتُ بها سمعتُ نغماتها ودستاناتها وتعلمتُ منها أشياء وأصواتها تفرعُ مسمعى كأنها صوتُ سلسلةٍ تجرُّ على صخرةٍ صماء وتكاد تنقطع أدباري وتنصرمُ مفاصلي من لذة ما انسل ولا يزالُ الأمر يتطور علىّ حتى تقشع الغمامُ وتمزقت المشيمة ^(٣) وخرجت من المغامرات والحوت قد انقض من الخيرات متوجهاً إلى عين الحياة فرأيتُ الصَّخْرَةَ العظيمةَ

(١) الثقلان : الإنس والجن .

(٢) الرِّحَا : الطاحون .

(٣) المشيمة : غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة .

على قلة^(١) الطور العظيم ، فسألت عن الحيتانِ المجتمعَةِ وعن الحيواناتِ المتنمِّعةِ المتلذِّذَةِ بظلِّ الشاهقِ العظيمِ أن هذا الطورَ ما هو؟ وما هذه الصخرةُ العظيمةُ؟ فاتخذَ واحدٌ من الحيتانِ سبيله في البحرِ سَرَباً^(٢) وقال : ذلك ما كنا نبغي وهذا الجبلُ طورسينا والصخرةُ صومعةُ أبيك فقلت : وما هؤلاء الحيتانُ؟ فقالوا : أشباهُك أنتم من أبٍ واحدٍ وقد وقع لهم شبهُ واقعتِك فهم إخوانُك . فلما سمعتُ وحققتُ عاقبتَهُم وفرحتُ بهم وفرحوا بي فصعدنا إلى الجبلِ ورأيتُ أبانا شيخاً كبيراً يكادُ السمواتِ والأَرْضون تنشقُّ من تجلِّي نوره ، فبقيتُ تايهاً متحيراً منه ومشيتُ إليه فسلمَ عليّ فسجدتُ له ولذتُ أعمقُ في نوره الساطع ، فبكيتُ زماناً وشكوتُ إليه من حبسِ قيروان فقال لي : نعم تخلصتُ إلا أنك لا بدّ راجعٌ إلى السجنِ الغربي ، وأن القيدَ ما خلفته تماماً . فلما سمعتُ طار عقلي وتأوهتُ صارخاً صراخَ المُشرفِ على الهلاكِ ، فتضرعتُ إليه فقال : أمّا العودُ لك فضروريّ الآن ولكنني أبشرك بشيئين : أحدهما أنك إذا رجعتَ إلى الحبسِ يمكنكُ المجيءَ إلينا والصَّعودُ إلى جنبتنا هينٌ متى شئتُ ؛ والثاني أنك متخلصٌ من الآخر إلى جانبنا تاركاً للبلادِ الغربية بأسرها مطلقاً ففرحتُ بما قال . وقال : اعلم أن هذا جبلُ طورسينا وفوق هذا جبلُ طورسينا مسكنُ والدي وجدِّك ، وما أنا بالإضافةِ إليه إلا مثلك بالإضافةِ إلىّ ، ولنا أجدادُ آخرون حتى ينتهي النسبُ العظيمُ إلى هذا الجدِّ الأعظم الذي لا جدَّ له ولا أم ، وكلنا عبيدُه وبه نستعينُ ومنه نقبِسُ وله البهاءُ الأعظمُ والجلالُ الأرفعُ وهو فوقَ الفوق ونورُ النور وهو المتجلّي لكل شيءٍ بكل شيءٍ ، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهه . فأنا في هذه القصةِ إذ تعيَّرَ عليّ الحالُ وسقطتُ من الهوى إلى الهاويةِ بين قومٍ ليسوا

(١) القلة : القمّة .

(٢) سرباً : أنسياً .

بمؤمنين محبوساً في ديار المغرب وبقي معي من اللذة ما لا أطيق أن أشرحه ،
فانتحبتُ وابتهلتُ وتحسّرتُ على المفارقة . وتلك الراحة كانت أحلاماً زائلةً
على سرعة ، نجانا الله تعالى من قيد الهوى والطبيعة ، والحمد لله رب العالمين ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعترته الطاهرين ، وهذه القصة تسمى
الغربةُ الغريبة .

٥ - السهروردي الشاعر

حنين

يقول ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « وله شعر كثير ، أشهره وأجوده قصيدته الحائية :
« أبدأ تحن إليكم الأرواح » ، ومن المؤسف أن لا نعثر في أكثر كتب الأدب والحكمة والتصوف إلا
على هذه القصيدة وبعض مقطوعات تصور بعض نزعاته الصوفية نشبتها فيما يلي :

أبدأ تحن إليكم الأرواح	ووصالكم رينحانها والراح ^(١)
وقلوب أهل وداكم تشواقكم	وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمنا للعاشقين تكلفوا	ستر المحبة ، والهوى فضاح
بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم	وكذا دماء العاشقين تباح ^(٢)
وإذا هم كتموا تحدّث عنهم	عند الوشاة المدمع السفاح ^(٣)
وبدت شواهد السقام عليهم	فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم ، وليس عليكم	للصّب في خفض الجناح جناح ^(٤)

(١) الوصال : ضد القطيعة والهجران . الراح : الخمر .

(٢) جاءت كلمة « البائحين » في بعض النسخ بدلا من العاشقين .

(٣) جاءت كلمة « السفاح » في بعض النسخ بدلا من « السفاح » .

(٤) خفض الجناح : لين الجانب . ويمكن ضبط هاتين الكلمتين على أنهما فعل ومفعول به .
والجناح يضم الجيم : الإثم .

فإلى لِقَاكُمْ ^١نفسه مُشتاقَةٌ
وإلى رضاكُمْ طَرْفُهُ طَمَّاحٌ ^(١)
عُودُوا بنورِ الوصلِ في غَسَقِ الجفَا
فالهِجْرُ ليلٌ والوِصالُ صَبَاحٌ
صافاهُمْ فصفّوا له ، فقلوبُهُمْ
في نُورِها المِشكاةُ والمِصباحُ
فتمتّعوا ، والوقتُ طابَ بقرْبِهِمْ ^(٢)
راق الشرابُ وورقتِ الأقداحُ

* * *

يا صَاح: ليسَ على المُحبِّ مَلامَةٌ
إِنْ لَاحَ في أَفْقِ الوِصالِ صَبَاحٌ
لَا ذَنْبَ لِلْعُشَّاقِ إِنْ غَلَبَ الهوى
كتمانَهُمْ فَمَا الغَرامُ فَبَاحُوا
سَمَحُوا بأنفُسِهِمْ وما بَخِلُوا بها
لما دَرَوْا أَنَّ السَّمَاحَ رَبَّاحٌ ^(٣)
وَدَعَاهُمْ داعي الحقائقِ دَعْوَةٌ
فغَدُوا بها مُستأنسينَ وَرَاحُوا
رَكَبُوا على سَنَنِ الوفا وَدُمُوعُهُمْ
بِحَرْ، وَحادى شوقِهِمْ مَلاحٌ ^(٤)
واللّٰهُ ما طَلَبُوا الوقوفَ بِبابِهِ
حَتَّى دُعُوا وَأَتَاهُمُ المِفْتَاحُ
لَا يَطْرَبُونَ لِغَيْرِ ذِكْرِ حَبِيبِهِمْ
أَبَدًا فَكُلُّ زَمَانِهِمْ أَفْرَاحٌ
حَضَرُوا، فغابوا عن شَهودِ ذَوَاتِهِمْ
وتَهَتَّكُوا لما رَأَوْهُ وصَاحُوا
أَفْناهُمُ عَنْهُمْ وَقَدْ كَشِفَتْ لَهُمْ
حُجُبُ البَقَا فَنَلَّاشَتْ الأرواحُ
فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ
إِنَّ التَّشْبَهَ بِالْكَرامِ فَلَاحُ

(١) جاءت كلمة «مرتاحة» في بعض النسخ بدلا من «مشتاق» .

(٢) جاءت كلمة «دارت» في بعض النسخ بدلا من «ورقت» .

(٣) الرباح : هو الربح .

(٤) الحادى : السائق .

قم يا نديمُ إلى المدام وهاتها فيحانها قد دارتِ الأقداح^(١)
من كرمٍ إكرامٍ بدنّ ديانةٍ لا خمرةٍ قد داسها الفلاح^(٢)

النفس

كتب السهروردي كثيراً عن النفس ، وقد جارى ابن سينا في عينته المشهورة .
هبطت إليك من المحل الأرفع ورفاء ذات تمزز وتمنع
ومن المؤسف أن لا نظفر من قصيدة السهروردي إلا على هذه الأبيات :

خلعتُ هياكلها بجرعاء الحمى وصبتُ لمغناها القديم تشوّقاً^(٣)
وتلقّيتُ نحو الديارِ فشاقتها ربعٌ عفتُ أطلالهُ فتمزّقاً^(٤)
وقفتُ تسألهُ فردّ جوابها رجعُ الصّدَى أن لاسبيلَ إلى اللقا
فكأنما برقٌ تالّقَ بالحمى ثم انطوى فكأنه ما أبرقا

ظلم العناصر

ومن شعره الذى يصور فيه وحدته وعزمه على الرحيل قوله :

أقولُ لجارتى والدّمعُ جارى ولى عزمُ الرّحيل عن الديار
ذرينى أن أسيرَ ولا تنّوحى فإن الشّهبَ أشرفُها السّوارى^(٥)
وإنى فى الظلام رأيتُ ضَوْءاً كأنّ الليلَ بُدّلَ بالنّهار

(١) المدام : الخمر . الحان والحانة : موضع بيع الخمر .

(٢) البدن : الوعاء .

(٣) الجرعاء : رملة مستوية لا تنبت شيئاً . صبا : حن . المغنى : المنزل .

(٤) عفت : درست وامحت .

(٥) ذرينى : دعينى . السوارى : جمع سارية .

إلى كم أجعلُ الحياتِ صَحْبِي إلى كم أجعلُ التَّنِينِ جَارِي^(١)
وأرضى بالإقامةِ في فلاةٍ وفي ظلمِ العناصرِ أين دَارِي ؟
ويبدو لي من الزَّوراءِ برقٌ يُذكِّرني بها قُربُ المزارِ
إذا أبصرتُ ذاكَ النورَ أفنى فما أدري يميني من يساري

متفرقات

ومما يروى عنه قوله :

أشُمُّ منكَ نسيّاً لستُ أعْرِفُهُ أظنُّ لَمِيَاءَ جَرَّتْ فيكَ أذِيلاً
وقوله :

إِنْ تَأَمَّلْتُكُمْ فَكُلِّي عِيونُ أَوْ تَذَكَّرْتُكُمْ فَكُلِّي قُلُوبُ

وصال

تروح حياة العشاق بين الهجر والوصال وفي هذه الأبيات يصور السهر وردى حلوة الظفر بالوصال :

تَصَرَّمْتُ وَحْشَةً اللَّيَالِي وَأَقْبَلْتُ دَوْلَةَ الْوَصَالِ^(٢)
وَصَارَ بِالْوَصْلِ لِي حَسُوداً مَنْ كَانَ فِي هَجْرِكُمْ رَثِي لِي
وَحَقِّكُمْ بَعْدَ أَنْ حَصَلْتُمْ بِكُلِّ مَا فَاتَ لَا أَبَالِي^(٣)
أَحْيَيْتُمُونِي وَكُنْتُ مَيِّتاً وَبَعَثْتُمُونِي بِغَيْرِ غَالِي

(١) التنين : الحية العظيمة .

(٢) تصرمت : تقطعت وانقضت .

(٣) بعد أن حصلتم : أي بعد أن واصلتم .

تَقَاصَرَتْ عَنْكُمْ قُلُوبٌ فَيَا لَهُ مُورِداً حَلَالِي^(١)
 عَلَى مَا لِلْوَرَى حَرَامٌ وَحُبُّكُمْ فِي الْحَشَا حَلَالِي^(٢)
 تَشَرَّبَتْ أَعْظَمَى هَوَاكُمْ فَمَا لِغَيْرِ الْهَوَى وَمَالِي
 فَمَا عَلَى عَادِمٍ أَجَاجاً وَعِنْدَهُ أَعْيُنُ الزُّلَالِ^(٣)

تشكك

ومن شعره الذي ذهب فيه مذهب المشككين قوله :

فُزْ بِالنَّعِيمِ فَإِنْ عَمَرَكَ يَنْفَدُ وَتَغْنَمُ^(٤) الدُّنْيَا فَلَيْسَ مَخْلَدُ^(٥)
 وَإِذَا ظَفَرَتْ بِلَذَّةٍ فَانْهَضْ لَهَا لَا يَمْنَعَنَّكَ عَنْ هَوَاكَ مَفْنَدُ^(٦)
 وَصِلِ الصَّبُوحَ مَعَ الْغُبُوقِ فَإِنَّمَا دُنْيَاكَ يَوْمٌ وَاحِدٌ يَتَرَدَّدُ^(٧)
 وَعَدُوكَ تَشْرَبُ فِي الْجَنَانِ مَدَامَةً وَلِتَنْدَمَنَّ إِذَا أَتَاكَ الْمَوْعِدُ
 كَمْ أُمَّةٍ هَلَكَتْ وَدَارٍ عُطِّلَتْ وَمَسَاجِدٍ خَرِبَتْ وَعُمُرٍ مَعَهُدُ
 وَلَكُمْ نَبِيٌّ قَدْ أَتَى بِشَرِيعَةٍ قَدِمْكُمْ وَكَمْ صَلُّوا لَهَا وَتَعَبَّدُوا^(٨)

(١) حلا : كان حلواً . وفي رواية أخرى : خلا بالخاء المعجمة .

(٢) حلالى : حلال لى ضد الحرام .

(٣) الأجاج : الماء الملح المر .

(٤) تغنمه : انتهنز غنمة - عن « أقرب الموارد » .

(٥) تدخل « ليس » على الجملة الفعلية أو على المبتدأ والخبر مرفوعين - عن « مغنى اللبيب »

طبع دار الكتب العربية الكبرى ج ١ ص ٢٢٨ .

(٦) المفنند : اللائم أو المكذب .

(٧) الصبوح : كل ما شرب صباحاً . والغبوق : ما يشرب في العشى .

(٨) « عيون الأنبياء » لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٧٠ .

العصفور والقفص

قالها وهو في اللحظات الأخيرة من أيام حياته :

قل لأصحابِ رأوني مَيِّتًا فبكُونِي إذ رأوني حَزَنًا
 لا تظُنُونِي بَأَى مَيِّتٍ ليس ذا المَيِّتِ واللهُ أنا
 أنا عصفورٌ وهذا قَفْصِي طَرْتُ مِنْهُ فَتَخَلَّى رَهْنًا
 وأنا اليومَ أناجِي مَلَأَ وأرى اللهَ عِيَانًا بَهْنًا
 فاخلعوا الأنفُسَ عن أجسادِها تَرَوْنَ الحَقَّ حَقًّا بَيْنَنَا
 لا تَرْعَكُمُ سَكْرَةُ المَوْتِ فَمَا هِيَ إِلَّا كَانْتَقَالَ مِنْ هُنَا
 عنَصَرُ الأرواحِ فِينَا وَاحِدٌ وكذا الأجسامُ جِسمٌ عَمَّنَا
 ما أرى نَفْسِي إِلَّا أَنْتُمْ واعتَقَادِي أَنْكُمْ أَنْتُمْ أَنَا
 فارْحَمُونِي تَرَحَّمُوا أَنْفُسَكُمْ واعْلَمُوا أَنْكُمْ فِي إِثْرِنَا
 مِنْ رَأَى فَلْيَقُوْا نَفْسَهُ إِنَّمَا الدُّنْيَا عَلَى قَرْنِ القِنَا^(١)
 وَعَلَيْكُمْ مِنْ كَلَامِي جَمَلَةٌ فَسَلَامُ اللهِ مَدْحٌ وَثَنَا

حوادث

١

من الحوادث التي تروى عنه وقال فيها شعراً هذه الحادثة التي يرويها ابن خلكان قال :

(١) فليقو : لا بد من إشباع الواو ليستقيم الوزن .

... وكان له مجلس وعظ وعلى وعظه قبول كثير وله نفس مبارك ، حكى لى
من حضر مجلسه أنه أنشد يوماً فى المجلس على الكرسي :

لَا تَسْقِنِي وَحْدِي فَمَا عَوَّدَتْنِي أَنِّي أَشْحُ بِهَا عَلَى جُلَّاسِي
أَنْتَ الْكَرِيمُ وَلَا يَلِيقُ تَكَرُّمًا أَنْ يَعْبَرَ النَّدَاءُ دَوْرُ الْكَاسِ
فتواجد الناس لذلك ، وقطعت شعور كثيرة وتاب جمع كثير . . . (١)

٢

وروى أبو المظفر سبط بن الجوزى قال :
... وجلس يوماً ببغداد وذكّر أحوال القوم وأنشد — رحمه الله تعالى
وعفا عنه — :

مَأَى الصَّحَابِ أَخُو وَجْدٍ نَظَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا صَبٌّ نَجَارِيهِ
وجعل يردد البيت ويطرب فصاح به شاب من أطراف المجلس وعليه قباء
وكُوتة وقال : يا شيخ ، لم تشطح وتنتقص القوم ! والله إن فيهم من لا يرضى
أن يجاريك ولا يصل فهمك إلى ما يقول ، هلا أنشدت :

مَأَى الصَّحَابِ وَقَدْ سَارَتْ حُمُولُهُمْ إِلَّا مَحَبٌّ لَهُ فِي الرِّكْبِ مَحْبُوبُ
كَأَنَّهُ يَوْسُفٌ فِي كُلِّ رَاحِلَةٍ وَالْحَىُّ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ يَعْقُوبُ
فصاح الشيخ ونزل من على المنبر وقصده فلم يجده ووجد موضعه حفرةً بها دم
مما فحس برجليه عند إنشاد الشيخ البيت . . . (٢)

(١) « وفيات الأعيان » المجلد ٣ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) « النجوم الزاهرة » المجلد ٦ طبعة دار الكتب المصرية .

المراجع

- السهروردي : في الحكمة الإلهية
السهروردي : هياكل النور
ياقوت الحموي : معجم الأدباء
ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة
ابن خلكان : وفيات الأعيان
: دائرة المعارف الإسلامية
خير الدين الزركلي : الأعلام
ماسينيون : أخبار الحلاج
إبراهيم مدكور : في الفلسفة الإسلامية
عبد الرحمن بدوي : شخصيات قلقة في الإسلام
على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام
سامى الكيالى : من أضواء الماضى (سلسلة اقرأ رقم ٩٥)

الفهرست

الفصل الأول

عصر السهروردي

صفحة

٥	١ - توطئة
٩	٢ - الحركة السياسية والعقلية
١٢	٣ - البيئة الاجتماعية

الفصل الثاني

السهروردي في عصره

١٥	١ - مولده ونشأته الأولى
١٦	٢ - أساتذته
١٧	٣ - نبوغه المبكر
١٩	٤ - أسفاره
٢٠	٥ - آراء العلماء فيه
٢٠	١ - آراء الأقدمين
٢١	ب - آراء المحدثين
٢٢	٦ - صورته الجسمانية
٢٤	٧ - مآساته

٣١	.	.	.	.	.	.	١ - نزعتہ الصوفیۃ .
٣٣	.	.	.	.	.	.	٢ - فلسفتہ
٣٧	.	.	.	.	.	.	٣ - شعرہ
٤١	.	.	.	.	.	.	٤ - آثارہ

الفصل الرابع
منتخبات من آثار السهروردی

[illegible]

صنفه

[illegible]

۳ - السهروردی الفیلسوف :

٥٦	.	.	.	.	.	. الشوق إلى السراق القدسي
٥٨	.	.	.	.	.	طريق العروج إلى الجانب الأعلى
٥٩	.	.	.	.	.	بقاء النفس
٦١	.	.	.	.	.	الذات الحسية والذات الحيوانية
٦٣	.	.	.	.	.	النفس المتجددة
٦٤	.	.	.	.	.	طريق النجاة إلى الروح الأكبر
٦٥	.	.	.	.	.	رده على أبي البركات المتفلسف :
٦٥	.	.	.	.	.	سبب انقراض الحكمة
٦٧	.	.	.	.	.	المطرودون من باب الله
٦٨	.	.	.	.	.	طالب الحكمة
٧٠	.	.	.	.	.	خميرة الحكمة
٧٠	.	.	.	.	.	مراتب الناس في الدنيا والآخرة
٧١	.	.	.	.	.	صور ملائكية وصور شيطانية

٤ - السهروردی القاص :

٧١	.	.	.	.	.	.	.	. رؤيا
٧٧	.	.	.	.	.	.	.	أصوات أجمنحة جبرائيل
٨٧	.	.	.	.	.	.	.	حى بن يقطان

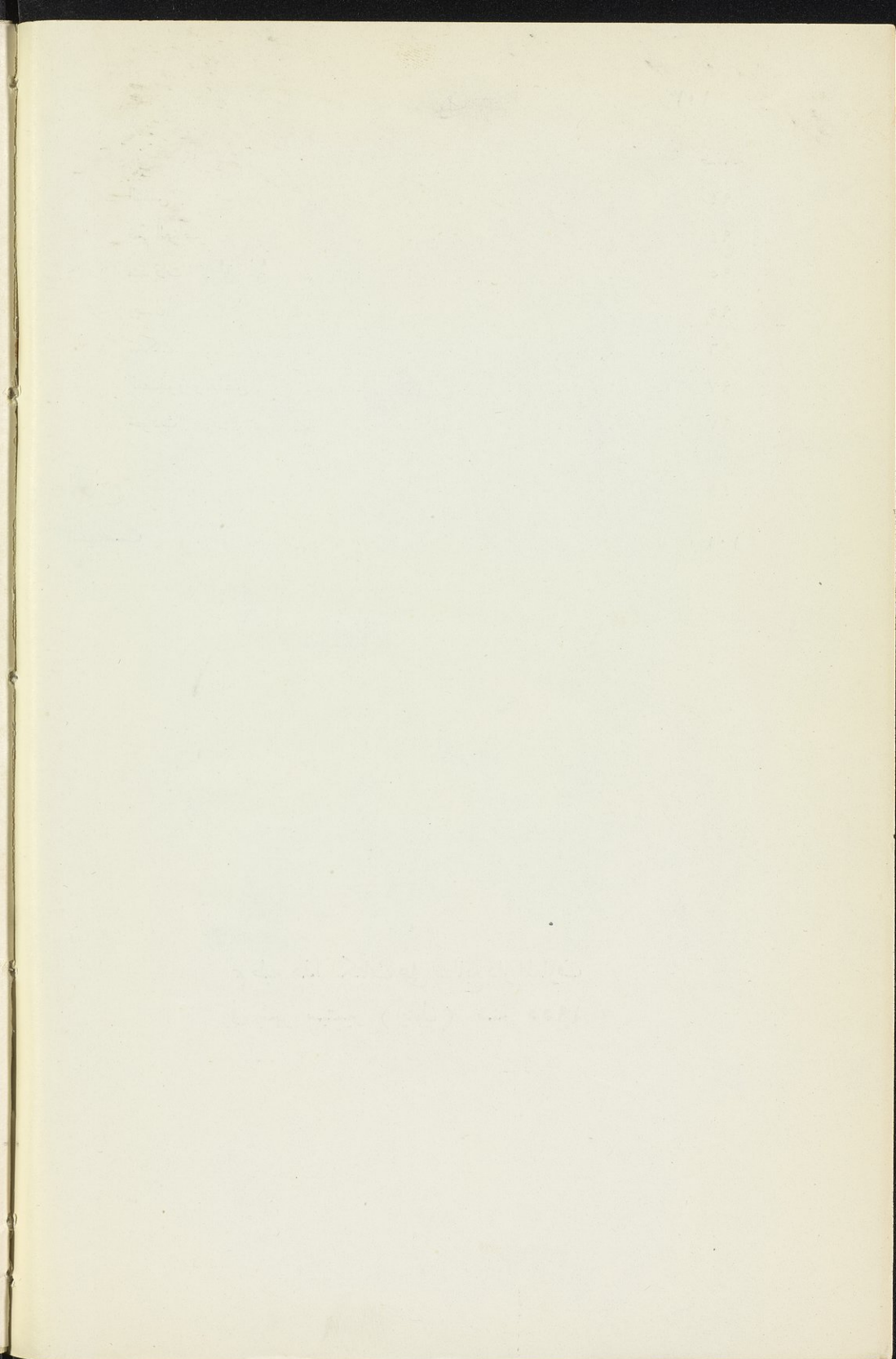
۵۔ السهروردی الشاعر :

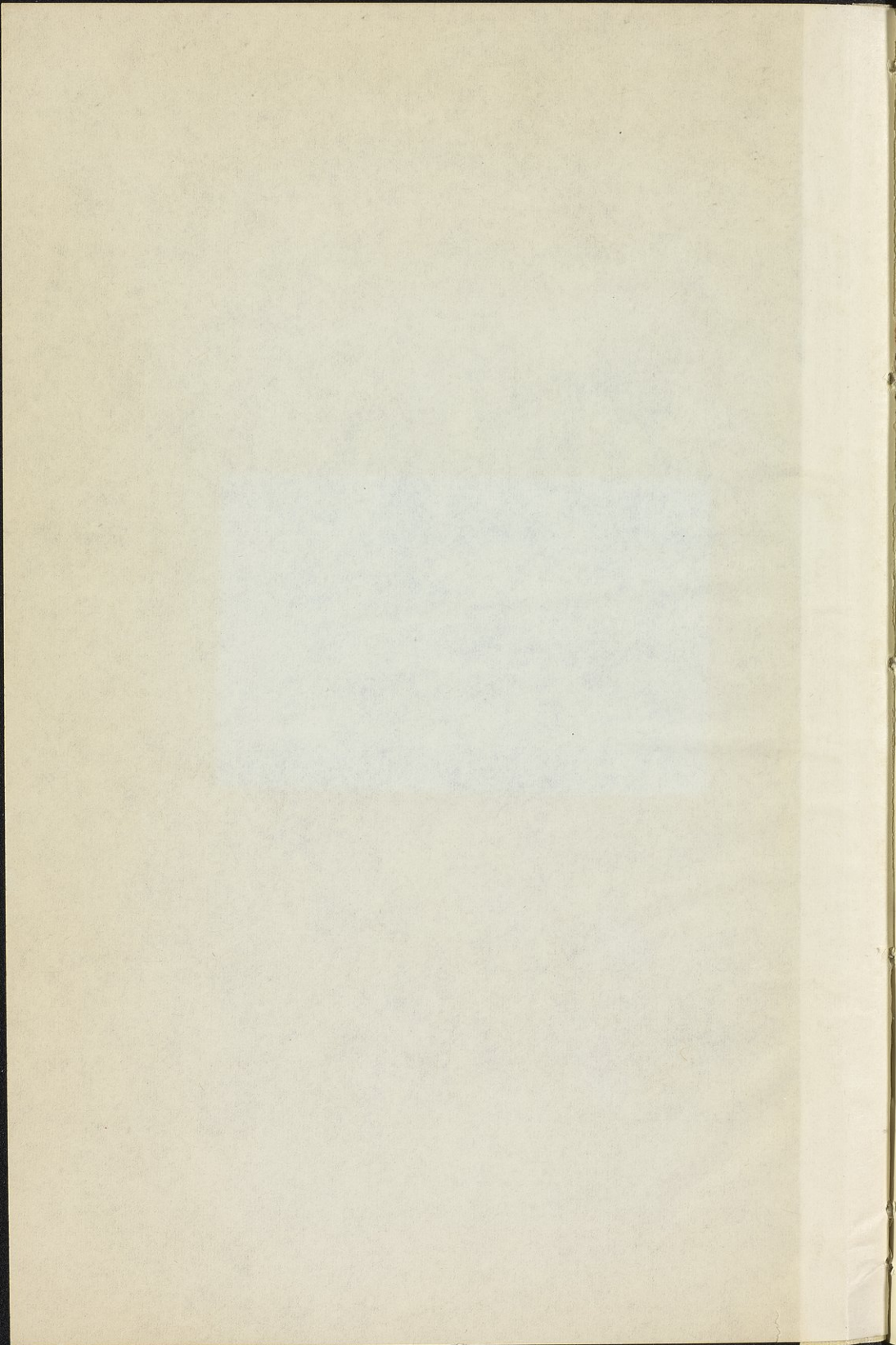
جہیز ۹۲

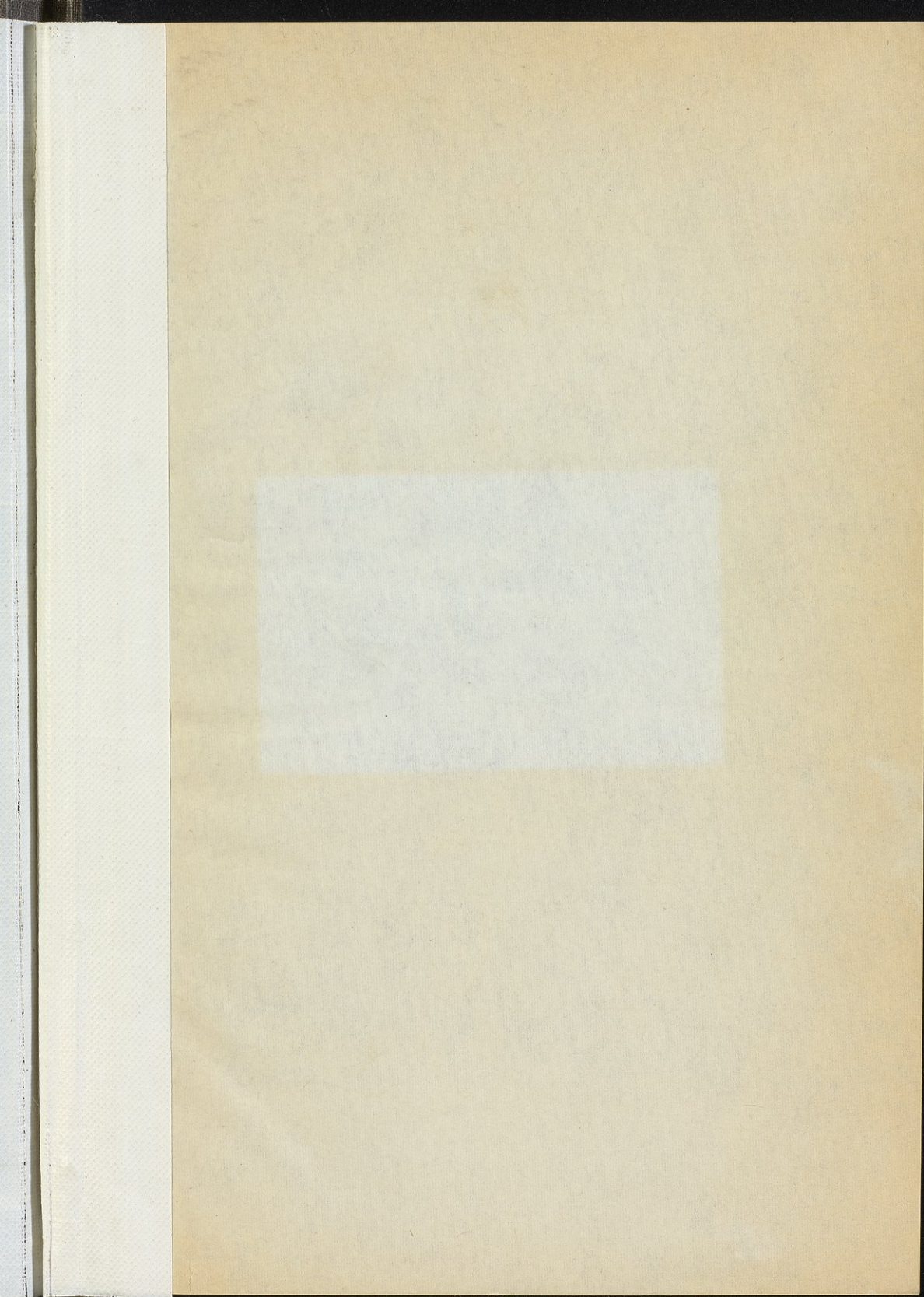
صفحة

٩٤	.	.	.	.	.	.	.	.	.	النفس
٩٤	.	.	.	.	.	.	.	.	.	ظلم العناصر
٩٥	.	.	.	.	.	.	.	.	.	متفرقات
٩٥	.	.	.	.	.	.	.	.	.	وصال
٩٦	.	.	.	.	.	.	.	.	.	تشكك
٩٧	.	.	.	.	.	.	.	.	.	العصفور والفقص
٩٧	.	.	.	.	.	.	.	.	.	حوادث
٩٩	.	.	.	.	.	.	.	.	.	المراجع
١٠١	.	.	.	.	.	.	.	.	.	الفهرست

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
في شهر سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٥٥







LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



(NEC)
B753
.S834
K399
1955

مجموعة نوابغ الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور ، كما يصورهم ويتبرجهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تمهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه فيجولوا فيه ويتموه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض ملحوظاً في اقتباسه أن يبرز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال .

فالمجموعة بهذه المثابة دائرة معارف كاملة تنقل الأدب الحى كما أوتحت به قرائح الأدباء . وإنها للخبرة حديثة تضاف إلى ذخائر الأقدمين ، وليس قصارها أنها تعريف بها وحكاية عنها ، فهي تحية العصر الحاضر للعصور الماضية ، وهديته إلى العصور المقبلة ، يرجى أن يحمد لها عشاق الضاد ، كلما جرى بها قلم أو هتف بها لسان .

● ظهر منها

- | | |
|--------------------------|-------------------------|
| ١ - ابن رشد | بقلم عباس محمود العقاد |
| ٢ - الجاحظ | بقلم حنا الفاخوري |
| ٣ - الشيخ نجيب الخلداد | بقلم عادل الغضبان |
| ٤ - محمود سامى البارودى | بقلم عمر الدسوقي |
| ٥ - ابن زيدون | بقلم شوقي ضيف |
| ٦ - الشيخ ناصيف اليازجى | بقلم عيسى ميخائيل سابا |
| ٧ - إخوان الصفاء | بقلم جبور عبد النور |
| ٨ - بشار بن برد | بقلم طه الحاجرى |
| ٩ - بديع الزمان الهمذانى | بقلم مارون عبود |
| ١٠ - أبو الفرج الأصبهاني | بقلم شفيق جبرى |
| ١١ - ابن الرومى | بقلم محمد عبد الغنى حسن |
| ١٢ - الفرزدق | بقلم الدكتور ممدوح حقى |
| ١٣ - السهروردى | بقلم سامى الكيالى |